إدموند دوتي

الصلحاء

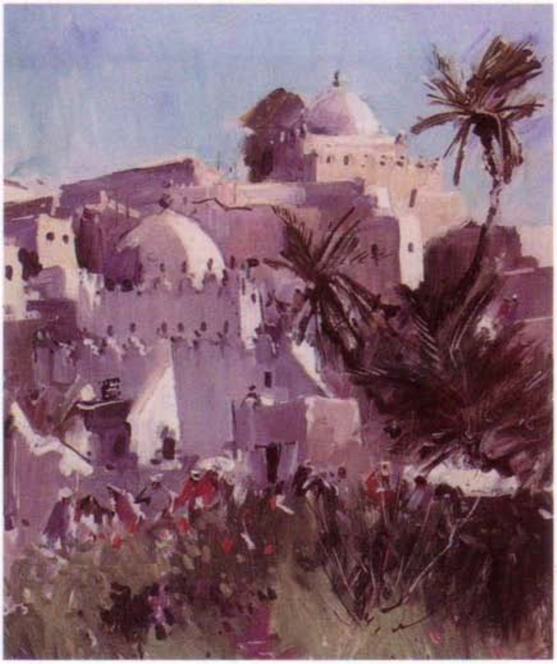

مدونات عن الإسلام المغاربي خلال القرن التاسع عشر

ترجمة محمد ناجي بن عمر

أفريقيا الشرق

http://alboordj.blogspot.com

ترجم هذا الكتاب عن :

Les Marabouts
notes sur l'Islam maghrébin
1905 - Doutté

© أفريقيا الشرق 2014
حقوق الطبع محفوظة للناشر
المؤلف : إدموند دوتي
المترجم : محمد ناجي بن عمر
عنوان الكتاب : **الصلحاء**
مدونات عن الإسلام المغاربي خلال القرن التاسع عشر
رقم الإيداع القانوني: 2014 MO 0448
ردمك : 978-9981-25-984-3
أفريقيا الشرق - المغرب
159 مكرر، شارع يعقوب المنصور - الدار البيضاء
الهاتف : 04 95 25 22 05 - 13 98 25 22 05
الفاكس: 20 29 25 22 05 - 80 00 44 22 05
مكتب التصفيف التقني : 39، زنقة علي بن أبي طالب
الهاتف: 54 / 53 67 29 22 05 - الفاكس: 72 38 48 22 05
البريد الإلكتروني : E-Mail : africorient@yahoo.fr
www.afrique-orient.com

إدموند دوتي

الصلحاء

مدونات عن الإسلام المغاربي خلال القرن التاسع عشر

ترجمة محمد ناجي بن عمر

نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة

أفريقيا الشرق

تقديم

يُمثل إدموند دوتي في نظر الباحث الأنثربولوجي المغربي حسن رشيق منعطفا بالغ الدلالة في تاريخ معرفة المغرب الحديث. فهو أول من حاول تطبيق نظريات المدرسة الأنثربولوجية الإنجليزية، والمدرسة السوسيولوجية الفرنسية على الظواهر الدينية المرصودة في المغرب[1]. من ثم يعتبر هذا الباحث الذي كانت له صولات وجولات على امتداد التراب المغربي حلقة فريدة في إعادة قراءة الظواهر الدينية والصوفية في مغرب القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

وللدكتور محمد ناجي بن عمر تجربة متميزة في ترجمة كُتب ذات طابع إثنوغرافي وأنثربولوجي ما انفكت تحظى باهتمام الباحثين المهتمين بإعادة قراء تاريخ مغرب القرن التاسع عشر، لعل من أهمها ترجمته لـ «زمن المحْلات السلطانية»[2] وترجمته لأحد هم أسفار دوتي على الإطلاق وأعني به كتاب «مراكش أو قبائل الشاوية ودكالة الرحامنة سنتي :1901-1902»[3]. ومعلوم أن لأدموند دوتي كتب أخرى لعل

---

1 - Hassan Rachik : *Le proche et le lointain, un siècle d'anthropologie au Maroc*. édition Parenthèses. M M S H, 2012. p 63.

2 - لويس أرنو : زمن المحلات السلطانية..، ترجمة محمد ناجي بن عمر، منشورات إفريقيا الشرق، 2001.

3 - إدموند دوتي : مراكش: الشاوية ودكالة الرحامنة سنتي :1901 - 1902، ترجمة محمد ناجي بن عمر، وتقديم الدكتور محمد المازوني، ط 1. مطبعة أنفو- برانت. 2010/1431.

أهمها تقاطعا مع كتاب «الصلحاء» كتاب «السحر والدين في إفريقيا الشمالية»[4]، وكتاب «مهمة في المغرب:بين القبائل» (1914).

وربما كان أكثر ما يلفت نظر الباحث في تراث هذا البحاثة هو قدرته العجيبة على تحليل ومقارنة وغربلة ركام من الأخبار / الحكايات / النوادر.. التي يقوم بجمعها بهدف قراءة واستخلاص نتائج انثربولوجية، وسوسيولوجية في فهم جوانب من المخيال الجمعي المغربي في لحظات وأزمنة محددة وفي أماكن جغرافية متنوعة (مناطق واسعة / قبائل / سهول..إلخ.).

وعلى الرغم من القيمة المعرفية والعلمية لإنتاج إدموند دوتي فإن غالبية المترجمين والدارسين له لا يكادون، على العموم، يستثنون كتاباته من مجمل الكتابات التي سعت إلى التعريف بالمغرب من منظور كولونيالي تمهيدا لاستعماره كباقي البلدان المغاربية، ومنها الجزائر تحديدا؛ ومن ثم فإن عمله، حسب هؤلاء، استخباراتيٌّ، مهمته في الدرجة الأولى، هي القيام بمهام استطلاعية واستعمارية عن ثقافة المغرب و لغاته وعاداته وسكانه وأنساقه السياسية والتاريخية. ورغم أهمية هذه الملاحظة فإن المتأمل الحصيف سيصل إلى نتيجة من المرجح لدينا أنها تنطبق على كُتاب ورحالة أجانب عديدين، وهي أن الرجل انخرط بالفعل، عن اعتقاد وإيمان علمي راسخ، في عملية ذهنية علمية فكرية محمومة أحلّها مكان الصدارة في انشغاله بالمغرب خاصة وشمال إفريقيا عامة محللا وملاحظا ومقارنا ومستنتجا؛ هذا علاوة على حرصه الشديد في تقصي الحقائق إلى حد يدفع القارئ إلى احترام المصداقية العلمية والمعرفية التي يصدر عنها الرجل وهو يتناول العديد من القضايا الدينية والسياسية والثقافية التي طرقها في

---

4 - إدموند دوتي: السحر والدين في أفريقيا الشمالية، ترجمة فريد الزاهي، منشورات مرسم، 2008.

هذا الكتاب وفي كتاباته الأخرى، ومنها على الأخص كتابه الآنف الذكر «السحر والدين في شمال إفريقيا» وذلك بسبب تقارب منهج التناول بين الكتابين وكذا في الرؤية العامة التي وجهت مقصدية الباحث فيهما.

في هذا الكتاب نحن أمام رحالة يعرض الحقائق كما تبرز له، يصفُها، يحللها، يقارن بينها وبين فضاءات متباينة (المغرب / الجزائر / تونس). من ثم اجتمع في الرجل مزيتان : دوتي الرحالة ودوتي العالم المشرَّب بالأفكار المهيمنة على الإثنوغرافيا المقارنة لعصره. هذا فضلا عن معرفة واسعة بالمصادر العربية القديمة التي وضعها نصب عينيه، معلقا، ومحللا، ومقارنا، بل ومصححا، وفي أحايين كثيرة، مبرزا لوجهة نظره واجتهاده الخاص. هكذا نجد البكري وابن خلدون وغيرهم كممثلين للمدونة التاريخية الكلاسيكية جنبا إلى جنب مع مؤرخين ورحالة كبار أجانب من أمثال موليراس ولا كروا ودوفوكو وشرينر وهاريس وترومليت وفون مالتزان[5]، هذا دون الحديث عن الروايات الشفوية المرتبطة بأولياء وصلحاء كُثر كان دوتي يستدل بها للتحقيق في أصول المقدس والأضرحة وانتشارها وزيارتها في المغرب وشمال إفريقيا.

يحدد إدموند دوتي في أول هامش من الكتاب مقصده من تأليف كتابه «الصلحاء قائلا : «كان هدفنا الأول في هذه الدراسة هو دراسة المعطيات الهامة عن الدين الإسلامي التي ورد ذكرها في أحدث الكتابات في المغرب وأكثرها تداولا، وخاصة كتابات موليراس (Mouliéras) ولامارتينيز (Martinière)، ولاكروا (Lacroix)، وفوكو (Foucauld). بيد أننا كنا مدفوعين، ونحن نحرر هذا

5 - انظر هوامش القسم الأول من الكتاب.

العمل،إلى أن نعرض، على سبيل المقارنة، لوقائع عديدة أودعناها في الهوامش التي جمعناها عن هذا الموضوع، بحيث أننا كنا مدفوعين دفعا إلى حصر إطار عملنا، حتى لا يمتد بحثنا هذا أكثر من اللازم. وهذا ما يُفسر السبب الذي من أجله اقتصرنا، في معظم الأحيان، على أخذ الأمثلة من المغرب. ذلك أن هذا القسم الصغير من إفريقيا قد حظي لدينا، فضلا عما سلف، بأهمية أكبر كي نرسم، في عصرنا الحالي، حالة للأمور مماثلة لحالة الجزائر-تونس، وذلك قبل أن يُحدث تدخلنا في هذا البلد سلسلة من الاختلالات الاجتماعية. إن عملنا هذا لا يدعي الشمولية حتى يكون عملا مرغوبا فيه، ونحن نعترف أننا أبعد ما نكون عن تقديم استنتاجات عامة. إذ ما زلنا ننتظر الكثير من المصادر المكتوبة، والمصادر العربية بصفة خاصة، وننتظر المزيد، بصفة أخص، من الملاحظة والمعلومة الشفوية. وقد حاولنا في مراجعنا الإشارة إلى ماهية قيمة الشهادات التي استحضرناها من زاوية التاريخ الديني ليس إلا»[6].

يبدو إدموند دوتي واعيا بحدود عمله وبما تفرضه المقاربة الأنثربولوجية من مقارنات بيد أن المصادر الشفوية من خلال الأمثلة المأخوذة من المغرب تحديدا ركيزة أساسية للدراسة مع إيمان واعتراف أخير يظل بموجبه هذا البحث مجرد محاولة لا تدعي الشمولية، وهو اعتراف يربط بين مقدمة الكتاب وبين خاتمته التي يدعو فيها إدموند دوتي إلى أن ظاهرة زيارة الأولياء والتبرك بالصلحاء ورسوخها في شمال إفريقيا عموما والمغرب بالخصوص ما يزال موضوعا بكرا يحتاج إلى إعادة قراءة واستئناف جديد. إن نقطة الانطلاق عند دوتي عبارة عن فكرة أساسية مؤداها أن غياب الوسيط بين الله وبين المؤمن كان أهم باعث على ظهور التبرك بالأولياء والصلحاء. ذلك أن

6 - انظر هامش ص 15.

الناس الذين اعتنقوا الإسلام عن إيمان لم يستطيعوا الفكاك عن أهمية الوسيط في التقرب إلى الله زلفى، ولربما كانت سببا في تعزيز مفهوم الشفاعة والتعلق به ما دام وساطة يمثلها النبي بين الناس وبين الله.

ورغم أن الإسلام قد حارب التأليه المتصل بالإنسان والأشخاص وأقر مفهوم الوحدانية الشامل، فإن التطور المعقد للإسلام وتماهي شخصية الرسول مع ما كان يمارسه الأولياء من زهد وتقشف وانصراف كُلي إلى العبادة والتعبد، دفع الناس إلى تقديس الأولياء وجعلهم في مرتبة أسمى وأعلى من بقية البشر، أولا، بفعل الصورة التي ترسّخت، جيلا بعد جيل، عند الناس بحكم التقليد وتداول ما نُسب إليهم من مناقب وكرامات خارقة اعتقد الناس بصحتها؛ وثانيا، بسبب التوظيف السياسي والإيديولوجي لعدد من الدول لدور الصلحاء والأولياء في تثبيت شرعية الدولة وتكريسها وكذا الاستعانة بهم عند الأزمات لجلب الاستقرار ومحاربة المتربصين بها، سواء كانوا من الداخل أو تعلق الأمر بالآخر الأجنبي، المستعمر أو الغريب.

يتعرض دوتي في هذا الكتاب إلى إشكالية الصلحاء محاولا الإحاطة بدورها الديني والسياسي والثقافي، متتبعا لجذورها وامتداداتها في العديد من الممارسات الراهنة، مما يجعل عمله هذا أساسيا في الوقوف عند أحد أهم الملامح التي تكوّن فيها ومن خلالها المتخيل الجمعي المغربي (الدين والتصوف خاصة). فظاهرة الصلحاء والتبرك تتجاوز كونها مجرد طقس إلى كونها ظاهرة مجتمعية تستحق أن تُدرس بمنهجية جديدة قادرة على استكناه البنيات العميقة (الدينية في الغالب) التي صنعت أهم الأحداث السياسية، بل وفسحت المجال لقيام دول على أساس ديني محض (المرابطون على سبيل المثال). من ثم كان لزاما على الباحث أن يتحدث عن موقع الصلحاء في الإسلام المغاربي عامة مبرزا أهم خصائصه، ليدلف بنا إلى توزيعهم الجغرافي، متتبعا في الوقت نفسه،

دلالة كلمة «المربوط» و«الرباط» وكيف استقرت دلالة كلمة marabout في الممارسة اليومية من خلال طقوس الزيارة والتبرك. وتتبع الباحث التأثير المحلي الكبير الذي كان للصلحاء في حياة الناس، ثم توقف مليا عند المدلول السياسي للكلمة من خلال بحث أصولها وعلاقتها بدولة المرابطين وحركتهم الإصلاحية، كما بحث في مدلول كلمات «مولايْ» و«الفْقيه» و«لالاّ» و«دَادّا» و«الشْريفْ» وعلاقتها بالصلاح، وتحدث عن علامات الصلاح وخصائصه، وعرض قبائل الصلحاء وسادتها مميزا بين صلحاء المدن وصلحاء القرى وعرج على سيدي عبد السلام بن مشيش كأحد أكبر الصلحاء الذين عرفهم تاريخ المغرب ثم عن الصلحاء المزوّرين أو المدّعين للنسب الشريف، وصلحاء وقفوا إلى جانب المستعمر وطالبوه بالتدخل وآخرون ادعوا صحابة الرسول (صلعم)، وانبرى مميزا بين أنواع من الصلحاء فمنهم من ازدادوا صلحاء بالفطرة ومنهم من كان صالحا بالأعمال، وآخرون عُرفوا بالزهد والتقشف، وآخرون منهم اشتهروا بكونهم صلحاء حمقى، بينما رُوي عن بعضهم تعاطيهم لأنواع شتى من الفسق والفجور كالزنى والخمر وزواج آخرين بمسيحيات.

كما عرض دوتي لنساء صالحات لعبن أدوارا كبيرة في المجتمع المغربي، ومنهن صالحات زانيات، وأخريات كن يمارسن حريتهن المطلقة في كل شيء وأخريات كن يلبسن لباس الرجال... إن ما يلفت النظر هو هذه المعرفة الشمولية التي استطاع دوتي تصنيفها وفرزها بعين الباحث الأنثربولوجي ليصل في نهاية المطاف أن ما يقدمه من خلال هذا المؤلف ليس سوى غيض من فيض في تتبع مظاهر الصلاح وأخبار الصلحاء ودلالة الدور الذي لعبوه في التاريخ الديني والثقافي للمغرب على مدى العصور السياسية.

إن الشكر في الإطلاع على خبايا هذا الموضوع في لغة الضاد موصول، أولا وقبل كل شيء، للمترجم والباحث الجاد الدكتور

محمد ناجي بن عمر. الذي بذل جهدا ليس باليسير في ترجمة هذا العمل، وشرّفنا مشكورا بمراجعته الكتاب وتقديمه إلى اللغة العربية. وقد بذلنا في ذلك ما استطعناه من جهد شاكرين له هذه الثقة وآملين أن يجد فيه القارئ بعض ما يشفي غليله المعرفي والثقافي والعلمي، متمنين للزميل المترجم مزيدا من التوفيق في ترجماته التي نعلم أن هذا العمل لن يكون الأخير في التصدي إلى نقل هذه الأسفار من الكتب الكولونيالية بخاصة إلى اللسان العربي، والكتب الأجنبية المهتمة بحقبة أو حقب من التاريخ المغربي الحديث عامة.

والله ولي التوفيق

د. حسن الطالب

الفصل الأول

كلمة الصلاح في الإسلام

إلى أستاذي وصديقي
أوكَست موليراس

تلميذكم: إدموند دوتي

1 - كلمة الصلحاء في الإسلام المغاربي[1]

إذا كانت هناك فكرة متأصلة في أذهان عموم الناس عن دين محمد، فهي أنها تتلخص في بساطته.إنه، كما يقال، ديانة توحيدية

1 - كان هدفنا الأول في هذه الدراسة هو دراسة المعطيات الهامة عن الدين الإسلامي التي ورد ذكرها في أحدث الكتابات في المغرب وأكثرها تداولا، وخاصة كتابات موليراس (Mouliéras) ولامارتينير (La Martinière)، ولاكروا (Lacroix)، ودوفوكو (De Foucauld). بيد إننا كنا مدفوعين، ونحن نحرر هذا العمل، إلى أن نعرض، على سبيل المقارنة،لوقائع عديدة أودعناها في الهوامش التي جمعناها عن هذا الموضوع، بحيث أننا كنا مدفوعين دفعا إلى حصر إطار عملنا، حتى لا يمتد بحثنا هذا أكثر من اللازم. وهذا ما يُفسر السبب الذي من أجله اقتصرنا، في معظم الأحيان، على أخذ الأمثلة من المغرب .ذلك أن هذا القسم الصغير من أفريقيا قد حظي لدينا، فضلا عما سلف، بأهمية كبرى كي نرسم في عصرنا الحالي، حالة للأمور مماثلة لحالة الجزائر-تونس، وذلك قبل أن يُحدث تدخلنا في هذا البلد سلسلة من الاختلالات الاجتماعية. إن عملنا هذا لا يدعي الشمولية حتى يكون عملا مرغوبا فيه، ونحن نعترف أننا أبعد ما نكون عن تقديم استنتاجات عامة. إذ ما زلنا ننتظر الكثير من المصادر المكتوبة، والمصادر العربية بصفة خاصة، وننتظر المزيد، بصفة أخص، من الملاحظة والمعلومة الشفوية. وقد حاولنا في مراجعنا الإشارة إلى ماهية قيمة الشهادات التي استحضرناها من زاوية التاريخ الديني ليس إلا. فلا يمكن النظر، إذن، إلى هذه الملاحظات باعتبارها انتقادات للمصنفات السالف ذكرها، فنحن لم نأت على ذكر عدد لا يُحصى من المصنفات المتصلة بالشرق الإسلامي. وهناك استثناء قمنا به بخصوص عمل م.غولدزيهر (M. Goldziher) حول «عبادة الصلحاء». أما فيما يتصل بتدوين الكلمات العربية فقد حاولنا الاقتراب، ما أمكن،من طريقة التلفظ المستعملة في اللهجات المغربية.

كبرى، مطلقة، قارّة، وباردة جدا، حيث تنعدم الوسائط بين الخالق والمخلوق. إذ يكفي المرء، كي يكون مسلما، النطق بشهادة أن لا إلاه إلا الله وأن محمدا رسول الله. وهكذا راجت سوق النقاشات الدوغمائية العديدة التي مزقت الإسلام كل ممزق. وكثرة الآلاف المؤلفة من الأحاديث النبوية المنسوبة إلى الرسول، والفروض الشاقة والمملّة الواجبة على المؤمن. وعندما نفكر في كل هذه الأشياء، بعيدا عن كون بساطة دين محمد هي السبب في انتشاره السريع، سنفهم لماذا انتشر بسرعة. ونستغرب كيف أن البربر لم يتقبلوه بسهولة في شمال إفريقيا حسب ابن خلدون الذي يشير إلى أنهم ارتدوا عليه إثنتي عشرة مرة حيث شق عليهم اتباعه. ومهما يكن الموقف الذي دعمه أكثر من باحث متميز[2]، والذي يريد أن يجعل من الإسلام ديانة بسيطة جدا وكونية، فإن الأمر يحتاج إلى دراسة معمقة.

ومن الأشياء التي يستغرب لها عادة أصحاب هذا الرأي ذلك التّطورُ الكبير الذي عرفته مسألة زيارة الأولياء في اعتناق الإسلام.[3] ولاشيء يبدو بعيدا، للوهلة الأولى، عن هذا الدين التوحيدي أكثر من تقديس أشخاص معروفين بالتقوى والورع. يضاف إلى ذلك أن الثراء النظري للعقيدة الكاثوليكية، وخاصة تلك الغنوصية الضيقة الممثلة في التثليث أو الثالوث، التي تُقرِّب الإنسان من ربه، قد ساهمت في انتشار «زيارة الأولياء»، ولم تفاجئنا قط مزحة لفولتير عندما كان يُطلع ضيوفه في مدينة فيرناي*على الكنيسة الوحيدة المخصصة للرب،

---

2 - من بينهم إرنسبت رينان.

3 - أهم عمل أنجز حول زيارة الأولياء في الإسلام هو عمل م.كولدزيهر Die Heiligenverechrung im Islam in Muh.stud، هال 1890 ص،275-278. وهذا العمل تنقيح كامل وطبعة مزيدة جدا لمقال سبق للكاتب أن نشره هنا بالذات أنظر : مجلة التاريخ الديني(Rev, His, Rel)، السنة الاولى، ج 1980 ، II، ص. 251-356.

* مدينة ارتبط اسمها بهذا الكاتب الشهير إلى حد تسميتها بفيرناي فولتير

لكن نستغرب عندما نرى الظاهرة نفسها تتكرر في الدين المحمدي mahométisme.

ويبدو الأمر محتاجا إلى تأمل فعلى الرغم من أننا نُقر للإسلام ببساطته الشديدة، فذلك يعود،بالضبط، إلى غياب ذلك الرابط القائم بين الله و بين المؤمن، مما كان باعثا عند الناس إلى البحث عن وسائط وجعلهم يُخفون تحت مسألة الشفاعة، التي أثبتها الفقهاء، تأليها حقيقيا للشخص (anthropolâtrie). وبتعبير أحسن لم يكف الإسلام عن أن يكون دينا تأليهيا للشخص.فقد بسط كولد زهير بوضوح كبير، وقوة أكبر، طبيعة الشرخ الذي كان يفصل في الإسلام التقليدي، وحتى الحالي، بين الإنسان وبين خالقه القادر على كل شيء[4]. بيد أنه أوضح كذلك أن مسألة «تأليه الشخص» كانت معروفة بكثرة عند أتباع هذه العقيدة، بما في ذلك أولئك المجايلين للنبي محمد، حيث لم يستطيعوا أن يتعاملوا معه باعتباره بشرا كباقي البشر[5]، وذلك رغم ما جاءت به التنبيهات الواردة في الوحي بما يخالف التأليه.

2 - مكانتهم في المغرب العربي

ونجد في أعمال هذا البحاثة أدق التفاصيل حول زيارة الأولياء وعلاقتها بالعقيدة الإسلامية. وهنا لا يسعنا التطاول على علامة من هذا الحجم في الحديث عن قضايا حساسة جدا. وغرضنا الحالي هو أن نُقدم فقط، ونحن نقصر كلامنا عن الإسلام المغاربي، بعض التوضيحات حول مضامين هذا الطقس الديني التأليهي وأقصد بذلك الصلحاء. ولنقل فقط إن العقيدة الإسلامية انصاعت إلى التبرك بالصلحاء وتقبّلته عقيدةً من العقائد؟ ولم يأخذ هذا الطقس مكانه في

4 - Goldziher, I, c, p.279.
5 - Id, 1.cp.282.

صميم الاعتقاد[6] إلا بعد صراع طويل دام إلى يومنا هذا. وكان هناك مشنّعون مستبسلون ضد هذا الطقس، وظهر أشخاص كانوا يخشون تشبيه الإنسان بالله وينأون بأنفسهم بعيدا عن كَبيرة الشرك[7] ولا يكادون ينطقون الشهادة كاملة إلا بصعوبة كبيرة، ذلكَ أَن النطق بالشهادة لا يتم إلا بذكر النبي. وهكذا نجد أن أحدهم يُدعى سمنون* وهو أحد صوفية القرن الخامس الهجري، وكان يعمل مؤذنا، وعندما يصل إلى قوله «لا إلاه إلا الله محمد رسول الله» كان يضيف قائلا : «يا رب لو لم تكن قد فرضت ترديد هذه الكلمات لما كنت أبدا عند النطق بها قادرا على قرن اسم الرسول باسمك». وأشار هاريس Harris في آخر سفر له إلى تافيلالت أنه رافق أحد أتباع الدرقاوية، الذي حكى له أن أحد أهداف الزاوية كان دائما هو العودة بالإسلام إلى صفائه الأول، وأن سيدي العربي الدرقاوي قد استغرقته وحدانية الله استغراقا وكان يوصي تلامذته بألا يرددوا الجزء الثاني من الشهادة إلا سرا[8]. قائلا بأنه

---

6 - انظر شرينر (Schreiner) : مساهمة في دراسة تاريخ الحركات الدينية في الإسلام.

7 - وهي العملية التي ترمي إلى أن تجعل لله شركاء كما ينص عليه المسيحيون في عقيدة التثليث في اعتقاد المسلمين. ولهذا فهم يسموننا مشركون أي الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى.

8 - لم أقف على هذه الإشارة رغم البحث والتقصي. وسيدي العربي الدرقاوي هذا هو: أبو عبد الله محمد العربي بن أحمد الدرقاوي مؤسس الزاوية الدرقاوية، توفي ما بين ليلة الاثنين والثلاثاء ثامن وتاسع شتنبر من عام 1823 ودفن ببوبريح ببلاد غمارة، (والواقع أن الأمر يتعلق ببني زروال الذين هم جزء من قبيلة غماري) هو مؤلف كتاب «الرسائل» الذي يتداوله الناس» (السلاوي) [لقب اشتهر به الناصري]، الاستقصاء، القاهرة، 1304(1886-1887)،ج 4، ص.175). ويقدم رين (Rinn) في كتابه Marabouts et khouan. الجزائر.1884،ص 223. معلومات عن هذه الشخصية.ويمكن أن تكون زاوية بوبريح مهد الطائفة. انظر أيضا حول بوبريح كتاب موليراس المغرب المجهول، (Le Maroc inconnu)، جII، وهران، 1899، ص، 88. لكن زاوية منقارة (هكذا يمليها فوكو)تبدو، حسب فوكو، ذات أهمية أكبر، أنظر كذلك بخصوص بوبريح ديبون وكوبولاني (Dépont et Coppolani) الزوايا الدينية (Les Confréries religieuses) ج 1. الجزائر، 1897. ص 507. وبخصوص منقارة انظر دوفوكو «التعرف على المغرب»(Reconnaissance du

لا يمكن الإشارة إلى الخالق القدير[9] [10]وهو كلام سمنون[11] المتصوف المكرر في القرن الهجري الثامن.

Maroc)، مجلد واحد. باريس 1888. ص352. ويبدو أن دوفوكو يخلط هنا بين مؤسس الطريقة وشيخ زاوية، وهي زلة لا تنقص من أهمية الكتاب، فهو مصدر هام عن تاريخ المغرب قائم على الملاحظة المباشرة والمادة الغزيرة بعيد عن الرواية الشفوية. على خلاف كتاب موليراس الذي يعتمد على الرواية الشفوية وحدها، باستثناء المعلومات التاريخية الموجودة خارج النص، فموليراس لم يقف عند المصادر المكتوبة. ومعلوماته الشفوية هامة جدا خاصة أنه نفسه يتقن الدارجة العربية والبربرية أحسن من الأهالي. وبما أنه أبدى اهتمامه بالمسائل الدينية فإن كتابه عندنا يحظى بأهمية كبيرة جدا، ولا يزال كتاب رين السالف ذكره أهم كتاب عن الزوايا الدينية في إفريقيا الشمالية. وللأسف فإن الكتاب لا يذكر مصادره إلى حد أننا لا نعرف هل أن مصدر أقواله هو من المعلومات الشفوية أو من الكتابات العربية أو من التقارير الإدارية. وتكمن أهميته خصوصا في التقارير الإدارية التي يقدمها، و نجد ديبون وكوبولاني، في كتابهما، قد أضافا له معلومات هامة، ومعلوماتهما الرسمية تمتد إلى الزوايا بالمشرق، وفيه قدمت المصادر كثيرا بالقياس إلى كتاب رين. وفي نظرنا ينبغي أن يعاد النظر كلية في القسم الأول من الكتاب الذي يشتمل علي تاريخ للإسلام، خاصة في المغرب الأقصى، لأن الكتاب لا يتضمن مواد دراسية خام وخصص لعرض وجهات نظر الكتاب.
هاريس: تافيلالت : سرد ليوميات استكشافية في مرتفعات الأطلس وواحات شمال الصحراء الغربية».

9 - Harris : tafilet The narrative of a journey of exploration in the Atlas montains and the North- west Sahara, Londres. 1895 p.299.300

حيث رافق هاريس السلطان مولاي الحسن في تحركه الأخير لتافيلات، ويصح كتاب بمعلومات هامة، كما أنه كان شاهد عيان على أحداث وفاة مولاي الحسن وتولية السلطان الجديد..

10 - هاريس: تافيلالت : سرد ليوميات استكشافية في مرتفعات الأطلس وواحات شمال الصحراء الغربية.

- tafilet The narrative of a journey of exploration in the Atlas montains and the North- west Sahara, Londres. 1896 p.299.300

رافق هاريس السلطان مولاي الحسن في حملته الأخيرة إلى تافيلالت، ويحتوي كتابه على أحداث عديدة ودقيقة. كما أنه كان شاهد عيان على أحداث وفاة مولاي الحسن وتولية السلطان الجديد..

11 - أبو الحسن سمنون بن حمزة الخواص المتوفى سنة 910هـ، صوفي شاعر، كان معاصروه يلقبونه بسمنون المحب، وذلك لأنه ينسج غزلياته وينظم محبته لله تعالى عش في عصر الدولة العباسية ببغداد.

ويلاحظ هاريس أن زيارة الصلحاء ممارسة متجذرة في المغرب، وأن مجددين من قبيل مؤسّس الطريقة الدرقاوية الذي يدعو صراحة إلى العودة إلى حياة الزهد والسلف الصالح في العصور المشرقة للإسلام، لم يتوانوا، هم أنفسهم، عن إضافة أسمائهم إلى القائمة الطويلة من هؤلاء الصلحاء[12].

ولهذا وجدنا سيدي العربي الدرقاوي المستقر ببوبريح (بقبيلة بني زروال شمال المغرب، على ضفاف واد تاسرافت) يحظى ب «التقديس» نفسه الذي يحظى به كل الصلحاء في جميع الزوايا. وقد ترسخ التقديس الشخصي عند المسلمين بالمغرب كثيرا حَدّاً أنه مسَّ أولئك الذي شغلوا أنفسهم بهذه المسألة. وإذا استثنينا العلويين في المشرق فإن مسألة التأليه لم يتم تجاوزها. ومن هنا يرى كولد زهير سبب انضمام البربر[13] كلهم إلى السلالة العلوية والفاطمية[14]. كما أوضح لنا بجلاء[15] كيف أن مُصلحا مثل ابن تومرت انصاع إلى لعب دور المهدي بسبب ميل هؤلاء البربر إلى تأليه الشخص. وقد استغرب كل الرحالة الذين زاروا المغرب، بمن فيهم أولئك الذين يسافرون من أجل تحصيل علوم خارجة عن نطاق القضايا الدينية، من انتشار «زيارة الصلحاء»، إلى درجة أن ليون الأفريقي (الحسن الوزان) شبههم بأنصاف الآلهة. ورغم أن غولف Rohlfs متعود كثيرا على معاشرة المسلمين فإنه استغرب لكيفية تعلق القبائل برمتها بشريف وزان وتزاحمهم ليلمسوه ولو بالإصبع[16].

---

12 - Harris, L.C

13 - أوردنا لفظ البربر كما هو مثبت في النسخة الأصلية للكتاب مع ما في الأمر من نقاش.

14 - Goldziher, Materialien zur kemniss des Almohade nbewgung, in Z.D.Mg. Li 1887 p.43Sep

15 - Goldziher : Op. loud, p 45.

16 - Rohlfs, Mei erster Aufenthalt in Marokko, Norden, 1885, P.336.

3 - توزيع الصلحاء

لاحظ هوكرHooker وبال Ball اللذان دخلا المغرب، مستكشفين جيولوجيين وعالمين من علماء النبات، أن زيارة الصلحاء[17] قد تبدو هي المظهر الوحيد لتجلى الدين في نظر بربر الأطلس. وصرح كدنفلدنتQuedenfeldt – وهو ملاحظ من الطراز الأول في كل ما يتصل بالإثنوغرافيا– أن هذا الطقس نفسه قد حل محل كل الديانات الأخرى[18]. وأخيرا يشير دوفوكو De Foucauld أن الولاء[19]، في كثير من المناطق المغربية، لا يكون إلا للأولياء، وأننا إذا استثنينا بعض المناطق، فإن أحدا لم يكن يمارس الواجبات الدينية وحتى ما يتعلق بالواجبات الخارجية. وثمة روايات تحكي أن هاريس Harris لاحظ باستغراب، عندما حل عند أحد الشرفاء وكان وليا كيف أن جهل هذا الأخير كان كبيرا بقضايا دينه[20]. وعلى كل حال، فإن تقديس الأولياء لا يجد تفسيره فقط في هذا الجهل وحده؛ ذلك أن هذا الجهل كان منتشرا أيضا في المدن المشهورة بثقافة سكانها من قبيل تلمسان وحتى تونس[21]. ومن جهة أخرى، فإن السكان الذين يعيشون في «ضلالات» دينية مثل بعض قبائل شبه الجزيرة العربية في الجنوب لا يكادون يعرفون تقديس الأولياء[22] إلا لماما. والشيء نفسه ينطبق تماما على

---

17 - Hooker and Ball : *Journal of a tour in Morocco and the great Atlas*. Londres 1878 p.191

وهو كتاب رائع ألفه شخصان متعودان على الملاحظة العلمية، لكن مع الأسف لا نجد فيه ما نريد.

18 - Quedenfeldt : Eintheibung und Verbreitung der Berberbevolkerung in Marokko. in Ver handi Anthrop. Ges. 1889, P 191.

وتعد أعمال كند فلت عن المغرب غنية بالوثائق المرتبطة بالقضايا الدينية. ومصدر جزء منها من المصادر الشفوية والكاتب محيط إحاطة تامة بموضوعه.

19 - de Foucauld : *Reconnaissance*. p.137.

20 - Harris : *Tafilet*. p.188.

21 - إذا صدقنا لابي *Les civilizations tunisiénnes*, Paris 1898. p 249

22 - Comte de land berg, Arabica, V, Ly de. 1898, P138.

قبائل الطوارق الذين يعتبر جهلهم وعدم مبالاتهم بالدين مضرب مثل لدى باقي الصحراويين، وليس للصلحاء في أوساطهم على العموم سوى تأثير لا يكاد يُذكر.

لقد ألمحنا توا إلى وجهة نظر لابي Lapie الذي يعتقد أن «الصلحاء أكثر وجودا وتقديسا في تونس من أي بلد إسلامي آخر».[23] وقد بدا لنا أن الكاتب ينقصه حس المقارنة، وهو يقصر حديثه عن تونس، ذلك أن كون عدد الصلحاء يزداد كلما اتجهنا نحو الغرب[24] فكرة متداولة. وإن سفرا عاديا عبر السكة الحديدية من الجزائر إلى وهران، لهو برهان ساطع: ففي منبسط الشليف نرى قببا كثيرة لمزارات الصلحاء يزداد عددها باستمرار، وحينما نصل إلى منطقة الهلاليين نجد عددها يتكاثر على مرأى منا في مجموعات مكونة من أربع أو خمس قبب. وما بالُك بتلمسان وضواحيها المزينة كلها بمقابر الصلحاء إلى درجة أننا لا نكاد نتقدم مسافة خمسين مترا حتى نجد قببا عديدة منها[25]. فبماذا نفسر ذلك؟هل يمكن القول إن انتشار العنصر البربري صار منتشرا باتجاه الغرب وأفضى إلى توسع في تقديس الأولياء ؟ يبدو من الأفضل أن نميل إلى أن عدد القبب «المهداة» للشرفاء ليزداد طبيعيا عندما نتقدم

حيث تعتقد القبائل البدوية لبا كريم أن الله متزوج من مريم وأن محمدا ابنهما ويعد هذا الكتاب مصدرها ما معلومات (رواية شفوية).

23 - Lapie, L.c. *Les civilisations tunisiennes.*

وهو كتاب هام ومشوق حيث إن مؤلفة قرأ ولاحظ كثيرا وفق نسق فلسفي

24 - Cpr : Trumelet : *Les saints de l'islam.* Paris 1881, p. CXVII

وهذا كتاب يبدو لنا هاما، حيث أخذ المؤلف معلوماته من المنبع، فقد رأى الأضرحة التي وصفها وسمع قصص الأهالي عنها، وخاصة بنواحي البليدة حيث قضى فترة طويلة، انه كتاب رائع، لكن إطنابه واستعارته أو مجازاته تجعله كتابا صعب التناول.

25 - أنظر:

Cf. : R. Basset : *Les dictons Satiriques attribués à Sidi Ahmed ben Youssef ext.: du jours asiet, t à p.* Paris 1890 p : 32.

نحو البلاد التي انطلق منها هؤلاء الدعاة للإسلام منذ ثلاثة قرون. ودائما عندما نصل إلى المغرب الأقصى، في أقصى الغرب الأفريقي نجد عدد الصلحاء، والزهاد، والأولياء يكون لافتا للنظر[26] : حيث توجد قبائل مأهولة بالسكان مثل قبيلة بني أحمد السُّراق (بإقليم شفشاون شمال المغرب) التي يقال عنها : «بني أحمد قبيلة مبروكة في القراءة»[27]. كما توجد قبيلة أخرى مثل بني زروال[8] التي يكثر فيها الأولياء، إلى درجة تسميتها ب «قبيلة الخلفاء»، حيث نجد حتى في الدواوير الصغيرة حفدة خلفاء النبي كعمر وأبي بكر وعلي[28]. ونقرأ عند موليراس تعدادا للقبب والمساجد والزوايا التي خصصت كلها لبعض الأولياء الذين تكاثروا بسرعة في مدن أقل أهمية مثل تطوان والشاون.[29]

وتوجد في إفريقيا الشمالية بعض من المجموعات السكانية البربرية التي ظلت محتفظة نسبيا بصفاء نسبها، وليسوا من «الأورتودوكس»: إنهم العباديون بمزاب، وسكنوا وَرغْلة حتى الأمس القريب، ومازال منهم قسم بجَرْبة، وفي جبل نفوسة في طرابلس. ولهم علاقات وأواصر مشتركة مع إخوانهم بعمان وزنجبار، وقد أريد لهم أن يُشبَّهوا في عقيدتهم بالوهابية في نجد[30] الذين نعلم أنهم يرفضون بالمرة زيارة

---

26 - أنظر ما كتب هاريس هوكر وكدن فلت و فوكو أعلاه، وأنظر أيضا
Moulièras, *Maroc inconnu,* II p. 160, 256, 280.

27 - Moulièras, op. Laud, II p : 767

28 - Moulièras, op. Laud II p : 73 , cf. in ,1, 92- 93.

29 - Moulièras, op. Laud, II p.127 -131, p : 205.

* - بالجزائر وتسمى أيضا ورقلة وهي مدينة جزائرية تقع في الجنوب الشرقي ومصدر تسميتها من السكان الأوائل الذين سكنوها وهم بنو الوركلان أو بنو الورجلان. تلقب بعاصمة الواحات وعنها قال بن خلدون «إنها باب الصحراء «وقد سكنتها قبائل زناتة قبل الفتح الإسلامي، كما اشتهرت تاريخيا بالتجارة مع السودان لا سيما تجارة الرقيق.

30 - Masque Ray : *Chronique d'Abou Zokaria,* Alger, 1879, p. Lix
وهذا الكتاب هو الترجمة الفرنسية الوحيدة الموجودة عن العباديين، رغم بعض الأخطاء حول الجانب التاريخي لدراسة هذه الطوائف

الصلحاء[31]. والأمر نفسه تقريبا عند العباديين وتُفهم نظرية الشفاعة بوصفها أساس هذه العقيدة، في معناها الضيق جدا وبحسب التأويل الصارم جدا للقرآن.[32] ورغم ذلك فإننا نجد الصلحاء، لدى العباديين في إفريقيا، يضطلعون بالدور نفسه، كما عند باقي الأهالي بكراماتهم. وكما عند نظرائهم، فإن تقديس المشايخ الدينيين وزيارة قبورهم مسألة كونية[33]. وكان على عادة تقديس الإنسان أن تكون متجذرة بإحكام كي تخلد، وذلك رغم تأثير التوحيد المعادي والصارم إزاءها الذي يدين به أهل مْزاب مثلا[34].

---

31 -Palgrave : *Une année de voyage dans l'Arabie centrale*. Paris 1866. t.2 p.52

حيث يؤكد تحريم زيارة الأولياء عند الوهابيين خاصة أنه عاش بين أكثرهم تطرفا

32 - Sac hou, Religiose Auschaungen des Idabitischen muhammedaner in Mitt.d. Séminarsf. orient Spr. t. II,L Abth.p.76.77

حيث يحلل في هذا الكتاب المهام جدا كتابا تحت عنوان: «كشف الغمة»، ويتعلق الأمر بعباديي عمان وزنجبار، لكن لا يوجد أي اختلاف بينهم وبين العباديين في المغرب الكبير.

33 - أنظر بخصوص زيارة الأولياء عند العباديين الكتب التالية ذات القيمة العلمية الكبيرة وتكاد تكون مفقودة:

- A. de Calassanti : *Motylinski, Bibliographie des Mzab*: Les livres de la secte abbadite, in Bull, de corresp., afr. 1885 Fasc. I. II p : 15 -65. Spécial p 47 Sep. (analyse des livre de biographies d'Echewakri)

- R. Basset : *Les Sanctuaires des Djebel Nefousa*, in jpuru asiet t X III, Mai – juin 1899, pp 423- 47 et t XIV, juillet –août 1899, pp 88- 120.

وهو عبارة عن رصد لمواطن العباديين ويشكل الكتاب قيمة علمية هامة جدا.

Manuscrits : arabes des bibliothèques, d'Ain- Madhi, etc....in Bull de corresp. Afric, 1885, fasc. V. VI, p481

والكتب المطبوعة في مصر عن العباديين ويمكن أن نضيف إلى هذه المصادر المكتوبة:

A. de Calassanti Motylinski, le Djebel Nefousa, Fasc

وهو ترجمة فرنسية لرحلة في هذه البلاد وهو غني بمعطيات شفوية وعناصر مادية للدراسة.

34 - لأن ظاهرة الصلاح تأخذ عند العباديين طابعا ديمقراطيا أكثر من باقي بلدان المغرب الكبير وسنعود لاحقا لهذه النقطة.

4 - أصول زيارة الصلحاء

فما هو أصل زيارة الصلحاء التي نجدها أينما حللنا وارتحلنا في المغرب الكبير؟ فبعد أن فند لابي، وهو فيلسوف في تكوينه، أطروحة فون مالتزان Von Maltzan[35]، الذي يرى أن هذا التقديس ليس سوى ثأر للمرأة داخل الإسلاموية islamisme، وتفنيده أيضا لنظرية أخرى لأسباب أخرى عديدة، تفيد أنها سبب دخول العبيد إلى الإسلام فانتهى به المطاف إلى القول إن زيارة الصلحاء مسألة كونية، ولا وجود لسبب آخر وراءها سوى الشعور الديني للمجموعات شعور يدفعهم إلى «اعتبار الله مرهف الحس، ويتخيلونه كما يشتهون... وبالتالي لا تعدو زيارة الصلحاء أن تكون سوى انتقام القلب والهوى من تجريد الوحدانية»[36]. وهذا تخريج مقبول، لكن من الناحية الفلسفية أكثر منها تاريخية، لأن «طقس الزيارة» نفسه يمكن أن يتطور في كل مكان، لكن في ظروف وامتدادات مختلفة. وما سيكون هاما هو معرفة ما كانت عليه زيارة الصلحاء عند البربر قبل الإسلام. وقد قدم كولد زهير دليلا مقنعا يمكن أن تدعمه أبحاث جديدة بالوقائع بقوله إن زيارة الصلحاء في شمال إفريقيا لا يعدو أن يكون شكلا من الأشكال التي تجلى تحتها، في الإسلام، ميل «البربر» القدماء إلى السحر والتقديس الذي يحيطون به سحرتهم وساحراتهم، لا باعتبارهم بقايا من السحرة السوقيين وإنما باعتبارهم رسلا وعرافات ورهبانا[37]. ويؤكد الباحث المجري أطروحته بما يقوم به صلحاؤنا الحاليون من إفراط في استخدام

---

35 - Op. Laud. p. 250- 251.

36- Von Maltzan. Reise in den Regentsshaften. Tunis und Tripolis. Leipzig. 1870. p.9

1 - رحلة في الأقاليم، تونس وطرابلس.

2 - حسب ملتزان فإن المرأة ترتمي عندما تقصى من المسجد في أحضان الصلحاء.

ويعد فون مالتزن كاتبا أساسيا وثمينا لدقة ملاحظاته و نقولاته الأمينة.

37 - Goldziher. Almohadenbew.p.4851- -

التعاويذ[38]، مذكرا برأي مشهور لبروكوب بخصوص نظرة المورو القدماء للنجوم وتقديرهم للآلهة والرسل وخاصة للعرافات اللواتي كن يتنبأن بالغيب على شاكلة وسطاء الوحي والكهان القدماء.لقد كان المغرب الكبير على مر الزمن للمسلمين بمثابة أرض للسحرة، وهي شهرة تم تفسيرها كما لو كانت تدخل في حكم المسلمات[39].

واستمرت زيارة الصلحاء طيلة العصر الوسيط ، ولدينا على ذلك عدة شواهد عند المؤرخين، خاصة لدى أصحاب التراجم. مع ذلك يجب الاعتراف أن كتابة تاريخ زيارة الصلحاء في المغرب الكبير ما قبل القرن السادس عشر أمر ما زال ينتظر الإنجاز تماما. فمادة البحث الخام موجودة، بيد أن البحث فيها شاق وصعب. لقد نشأت زيارة الأولياء في القرن السادس عشر بطرق لافتة للنظر، على حين غرة بدافع ديني لم يستطع أي أحد من المؤرخين معرفة طبيعته وتكونه[40].

---

38 - حيث أشار إلى وثائق هامة Depont et Coppolani. *les confréries religieuses* - p.135 seq

39 - ويجب الأخذ بعين الاعتبار أيضا من أجل إعادة رسم أصول الصلاح في الدرجة الأولى في «طقوس» ملوك المورو كما أشار إلى ذلك توتوليان ومونيسيوس فليكس، وسبيربان ومن جهة بالدرجة الثانية عند بومبينوس ميلا
Cpr : Duveyrier : *Touareg du Nord*, p 415 et de la Mort-et lac
وهي وثيقة «هامة تساعد في دراسة شمال غرب أفريقيا»
Gouvernement général de L'Algérie t.I p. 261.
كما نذكر أيضا هذا الكتاب الهام الذي اجتمع حوله هؤلاء الكتاب من ذوي الكفاءة العالية.

40 - التفسير الحقيقي هو ما ذكره باسي: Die.Sat. d'Ahmed ben Youssef, p.6 والذي طوره قليلا الباحث نفسه في 360-in.Rev M.d.R , 1890.mars – Avril.p.359 «والدفعة» الدينية التي نهتم بها ليست سوى رد فعل انتصارات المسيحيين في اسبانيا وشمال أفريقيا، وقد تميزت هذه النهضة الدينية بشكل ثلاثي.الأبعاد سياسة جديدة ونشاط ديني حيوي وأدب عربي إسلامي خاص بهذه الفترة. وقد رمز باسي في محاضراته إلى هذا الطرح دون الإدلاء بأدلة مقنعة ورغم ذلك سار على نهجه هوداس في ترجمة «نزهة الحادي» لكن اهتمامه ظل منشغلا بالصراع بين العلويين والسعديين.

حيث انطلق الصلحاء، كما يزعم بعضهم، من الساقية الحمراء، أي من عمق المغرب الأقصى لينتشروا في كل أنحاء شمال إفريقيا[41]. وقد شكلوا أرومة من الصلحاء وأسسوا أسرا بل وقبائل مزارية مشابهة للقبيلة الكبيرة لأولاد سيدي الشيخ المنحدرة من الشرق، التي تعود أصولها إلى جدهم المزداد أواسط القرن السادس عشر، والمتدين ليس فقط في الجنوب الجزائري والمغربي، بل حتى تخوم التل الوهراني. كما توجد بعض أسر الصلحاء أقل تماسكا مثل «حفدة» سيدي أحمد بن يوسف[42] دفين مليانة منتشرين بتيوت (جنوب وهران) وأومال وغليزان، وتلمسان والمغرب[43]، وأسرة سيدي الهواري[44] المنتشرين من سوس إلى وهران، مرورا بفكَيك و أنكَاد (الضهرة المغربية)[45].

---

41 - CF Masque Ray, formation des cités chez les populations sédentaires de l'Algérie Paris 1886, p. 122.

ويصد هذا العمل من أهم ما كتب عن لقبايل والأوراس ومزاب، حيث كان المؤلف مقيما بهذه المناطق فتمكن من جمع عدة معلومات وروايات شفوية.

42 - R. Basset, Les dictons Satiriques

حيث أفاض المؤلف في المسألة

43 - De la Mart, et lac, II p.440, CF. Dep et Copp, rel.486.

44 - أنظر بخصوص هذا الولي المراجع التي أحال عليها باسي:

Faster chronologiques de la vile d'oran, in bull, doc, géog, oran, 15 amis t.XII, Fasc L II; janvier- Mars 1892, p64.

45 - Mouliéras, Maroc inconnu, II, 419.

الفصل الثاني

الصالح ووضعه الاعتباري في المجتمع

1 - «تقديس» الإنسان

مازال الصلحاء الآن يزدادون بين ظهرانينا. فكل يوم يقوم العامة من الناس بإضفاء القداسة على الصلحاء كأفراد يبدو لهم أنهم تلقوا البركة من الله. وعندما كان تروملي يقول إن الكرامات أصبحت اليوم في ندرة أكثر مما كانت عليه في الماضي[1]، فإنه يكون بذلك قد جانب الصواب، ما لم يتعلق الأمر بإحدى مزحاته مثلما ورد في الكثير من كتبه. فكاتب هذه الأسطر نفسه، المكلف بتسيير هؤلاء الأهالي، لم يمر عليه يوم التقى فيه بأحد من هؤلاء الصلحاء المحليين -بما فيهم الأحياء- دون أن يحدثه عن بعض الكرامات الحديثة نسبيا للصالح / «الولي»: فعندما حلف أحدهم كذبا على قبر صالح كُسر طرف من أطرافه لدى خروجه منه، فيما كان يسقط أحدهم أرضا ولا يفيق حتى يكف عن بعض الشرور التي اقترفها من قبل. وأما أحدهم فقد رام الدخول إلى مغارة أحد الصلحاء وما أن دنا منها حتى رأى كأن بابها يضيق عليه حتى لا يكاد يمر ،بينما عبرها رفاقه من المصدِّقين بسهولة[2] الخ. وقام سي بلقاسم بن الحاج سعيد بأدوغ (قسنطينة) عن بعد بقتل زوجة بوابه لأنه تنبأ أنها ستأتي الفاحشة[3].

---

1 - Trumelet : *Saint de l'islam*, p.VIII

2 - وهذه الكرامات منتشرة كثيرا، إضافة إلى أخرى ستذكر لاحقا.

3 - Seddik (al.A Robert) : *Fanatisme et légendes arabe locales*, in revue algérienne, 13 (an 2 Sem N° 13.30 Sept, 1899, p.408- 409)

2 - الخصائص المجالية للصلحاء

واستطاع سيدي محمد بن بلقاسم من زاوية الهامل قرب بوسعادة[4]، قد استطاع منذ سنوات قليلة إيقاف القطار الذي يركبه لأداء صلاة العصر، وأن السائق لم يستطع استئناف الرحلة إلا بعد انتهاء الصالح من صلاته. كما سمعنا عن تلامذتنا بمدرسة تلمسان يحكون لنا عن الكرامات التي كان يعرف بها سيدي بوسيف، وهو صالح لا يعرف أصله يستطيع في كل يوم في بني صف (وهران): أن يُنبئ الوافدين بأسمائهم دون رؤيتهم وكان يعرف ماضيهم ويُطلع كل واحد منهم على مستقبله. كانت حياته كما يحكيها الناس (كان عمره 75 عاما) مليئة بالخوارق، واستطعنا التأكد في تلمسان من بعضها باستثناء بعض الأمور الثانوية التي ليست ذات أهمية، ومن صحة كراماته التي قدم عنها موليراس مختصرا[5].

3 - التأثير المحلي الكبير للصلحاء

وهكذا تبين لنا عدة شهادات- متفاوتة في دقتها-ومن مختلف العصور أن زيارة الأولياء موجودة في بلاد البربر منذ فجر التاريخ ، و استمرت حتى يومنا هذا. لكن تفاصيل تطورها غير معروفة جيدا، ولا نتوفر من أجل إعادة رسم مسارها سوى على معلومات عامة ومبهمة عن قسم كبير من تاريخها. فكيف كانت طبيعة هذه الطقوس؟وما معنى العبادة لدى البربر القدماء وأسلافهم ؟ ومن هم كهانهم وعرافهم

وكان البيدرو مسئولا في الجماعة المختلطة ويعيش بين المسلمين، ويقضي وقته الثالث في جمع أساطير والأهالي وعاداتهم، مصت من كتابه مصدرا هاما جدا وبخصوص هذا الصالح لادوغ أنظر: Depont et Coppolani, *Confréries religieuses*. p : 449.

4 - A.Robert, *Légendes contemporaines*, in Rev .des trad. .pop.t. XII n 6 Juin 1896, p 315.317, Depont Coppolani, Conf1.rel.mus, 403.

مع صورة هذا الصالح

5 - Moulièras : *Maroc inconnu*, II p132

وعرافاتهم ؟ وما هو المسار الحقيقي الذي مرت به هذه العبادة ليرتبط بالأولياء في الإسلام؟ وهل نستطيع الحصول على الدليل المادي لاستمراريته؟ وقد استطعنا، بخصوصِ الصلحاء بالمشرق، الحصول على بعض هذه الأدلة أهمها ما جمعه كَولد زهير في بحثه[6]، ومن أمثلة ذلك زيارات سيدي أحمد البدوي وما يصاحبها من احتفالات بطنطا والزيارة القديمة إلى[7] Bubastis حيث حل هذا الولي محل إله القمر عند الإغريق في المرتبة، ولم نتمكن منذ ما قاله هيرودوت وإلى ما يذكره رحالتنا المعاصرون، من الحصول على إشارات نستطيع من خلالها رسم مسار الشعيرة. وسنرى في أعمال أستاذ بودابست سلسلة من هذه الأمثلة. وذلك من قبيل النقوش الصخرية، وكتابات القدماء المقابلة مع كتابات المعاصرين، وتراجم الأعلام... إلخ، فكلها تساعد في كتابة تاريخ هذه الشعائر المحلية التي مازالت مستمرة في الإسلام. وبعد أن ذكر كلٌّ من ديبون Dépont وكوبولاني Coppolaniببحث كولد زهير قائلا (ننقل بالحرف): «لقد كشف رينان مع عدد آخر كبير من المستشرقين الموهوبين عن وثائق هامة لا تدع مجالا للشك حول وجود معتقدات قديمة في الممارسات الخارجة عن الإسلام. لكن هذه الأمثلة تكثر عندما يتعلق الأمر بشمال إفريقيا.فبدراستنا بعين المكان لبقايا المزارات المنتشرة على الأرض وبعودتنا إلى معتقدات وعادات الأهالي المحليين التي يمكن التنبؤ بها من خلال قوانين الإسلام ،فإنه بوسعنا تتبع هذه المسيرة الرائعة التي استطاع بها المسلمون الوصول إلى أسلمة المعتقدات الشعبية البربرية وكيف استطاعوا نشرها والدفاع عنها»[8].

ومن جهتنا نحن، إذا لم نسيء الظن بأفكار الكُتاب فإن لنا وجهة نظر معارضة.فلم نجد على حد علمنا في شمال إفريقيا مثالا ملموسا

6- Goldziher, Muh St II 325 -325.

7 - مدينة تقع في دلتا النيل الشرقي.

8 - Depont et Coppolani, *les Confréries, religieuses*, p.102.

عن معتقد إسلامي محلي تمَّ تأسيسه على أنقاض معتقد آخر، وقام بالتالي بتخليد طقوسه. وبناء عليه ففي الخمس عشرة صفحة المتضمنة في العرض الذي تلا الاستشهاد السالف ذكره لم يُقدِّم الكُتاب واقعة واحدة من هذا القبيل. والأسباب من وراء ذلك بسيطة جدا. ذلك أن شهادات القدماء نادرة جدا، كما أن نقوش الأهالي القديمة مفقودة. زد على هذا أن الأركيولوجيا والفولكلور وكتب التراجم البربرية والعربية والأبحاث المتعلقة بكل ولي على حدة، لم تتم بعد بطريقة متوازية من أجل تقديم نتائج في الموضوع. فقد انصب اهتمام الأركيولوجيين خصوصا على تلك الأطلال التي لها علاقة بمزار وليٍّ من الأولياء وفسحت المجال إلى خرافات محلية. ولا نتوفر لحد الآن إلا على نتائج جزئية: حيث نعرف أسماء آلهة الأهالي مشارا إليها، في الوقت نفسه، في العصور القديمة وفي أثناء الفترة الإسلامية. ونحن نعرف أن ثمة أضرحة إسلامية بُنيت على أنقاض كنائس، حيث نجد تحت مزارات لقبايل حلقات من الحجارة، كما لا حظنا بقايا معتقدات وثنية أو مسيحية في عدد معين من الأعياد، بل إننا نجد حفلات غريبة عن الإسلام تماما. لكن دليلا ماديا حاسما كالذي تم العثور عليه في المشرق ما زال ينقصنا. فليس في وُسعنا بعد كتابة تاريخ دقيق عن معتقدات الأهالي بالمغرب الكبير وعن التأثير الذي تركته فيهم الديانات البونية واليهودية والمسيحية، واستمرارها عبر الإسلام.

ولئن كانت الوثائق القديمة تنقصنا ،فإن الوثائق الحديثة والمعاصرة غزيرة : ذلك أن زيارة الصلحاء والأضرحة مزدهرة أكثر من ذي قبل، غير أنها أخذت مسارات مختلفة. ففي لقبايل مثلا تكونت هذه الممارسة في إطار فئة اجتماعية مستقلة. أما في مْزاب، فقد تحولت إلى ممارسة تيوقراطية حقيقية. وفي مكان آخر شكلت اتحاديات واسعة مثل اتحادية أولاد سيدي الشيخ. وفي عدد من الأماكن ظلت ممارسة محلية

ومستقلة ، لكنها في أغلب الأحيان تأسست في صورة زوايا صوفية. وسوف ندرس هنا، الصلحاء في حد ذاتهم بعيدا عن صفتهم كُهَّانا، ودون أن نتمسك بعلاقاتهم مع الألوهية Divinité ولا مع المعتقدات التعبدية التي تشكل موضوعها عند» أتباعهم».

4 - الصلحاء أكثر احتراما من السلطان، أكثر احتراما من الرسول

إن المرء الذي لم يشاهد في المغرب الكبير صالحا من الصلحاء الكبار، وهو يجول في القبائل التي اشتهر فيها، لا يمكنه أن يصل إلى معرفة المدلول الحقيقي لعبارة «تأليه الإنسان» التي سبق أن استعملناها مرات عديدة. ومع ذلك فهو مشهد يتكرر كثيرا ويتجدد حتى في شوارع الجزائر (العاصمة) عندما يزورها أحد الصلحاء ويتردد على أماكنها الرئيسية؛ إذ يتسابق الناس إلى الممر الذي سيمر منه هذا الولي الإنسان من أجل تقبيل برنوسه، وتقبيل ركابه إذا كان معتليا فرسه، بله تقبيل آثار أقدامه إذا كان راجلا. ولا يكاد يشق زحمة المعجبين به إلا بشق الأنفس. وما أن يصل إلى الفندق الذي سيقيم فيه، حتى يمتد إلى عشرين ذراعا من هؤلاء تحملونه إلى الطابق الأول أو الثاني[9] ويتوسل إليه الناس كي يأكل من بعض ما هيأووه له خصيصا، وإن رفض ذلك يطلبون منه تبركا كي يبصق في تلك الأطعمة التي يتنازعونها فيما بينهم للأكل منها.[10] وكل أولئك الذين شاهدوا شريف وزان في جولته بالجزائر قد نقلوا – كما يروون كلهم –مثل هذا الانطباع الذي لا يمحى عن التقديس الذي حظي به هذا الولي. وكان الرحالة غولف

9 - A. Robert, Leg. cont. l. c p 356. n. 2.

10 - Von melltzan, drei jahre im Nordwesteur Von Africa, Reisen in Algérien and Marokko, Leipzig, 1868, IV, 232- 223.

حيث أظهر اندهاشه مما رآه أمامه من تصرفات مماثلة في المغرب، والكتب ذا قيمة علمية كبيرة.

Rohlfs كما ذكرنا سابقا أحد الذين دُهشوا من المهابة غير العادية التي كان يحظى بها هذا الشريف. وقد ذكر هو نفسه في رحلته أنه تقمص شخصية الشريف مقدما نفسه كأحد أبناء العائلة الوزانية ،فكان الناس يأتونه بالمرضى لمعالجتهم[11] وكان حزام بندقيته الذي ورثه عن الشريف الوزاني موضوع تقديس حقيقي، وعن روايته يحكي غولف انه كان يستعين بكلمة Menschenkultus بينما كان بإمكانه أن يقول مثلا Heiligenverehrung. إن ما يبرز أكثر هذه الخاصية التأليهية هو أن الساكنة التي كانت تقدس أكثر صلحائها هم البربر الذين يبدون فتورا أكثر من الناحية الدينية. فالكل يدرك الحظوة الكبيرة التي كان ينعم بها، الصلحاء في لقبايل الكبرى: والحال أن أهالي هذه المنطقة بالذات، قياسا إلى مجموع المناطق الجزائرية الأخرى، هي وحدها التي لم يتمكن الإسلام من التغلغل إلى قلوب سكانها وأقل أهاليها ممارسة لتعاليمه: فمن المؤكد أنهم يجهلون مفهوم الشفاعة، التي من المحتمل أن لا تكون سوى توافق بين الفقهاء والعامة.

هكذا إذن يُنظر إلى الولي الصالح باعتباره كائنا له قدرات خارقة سيان في ذلك اعتبرنا مصدر تلك القدرات من البركة الإلهية أو نظرنا إليه فقط كائنا ميتا يفوق كل الكائنات الأخرى، وهو ما يحدث أحيانا كثيرة، حيث يبرز عجزه جليا في أعين أتباعه على نحو لا يقبل الدحض. هكذا زالت حظوة صلحاء لقبايل بقوة عندما اعتبروا أن جبالهم حصن منيع يحمونه ببركاتهم، فإذا بالمستوطن الفرنسي يستولي عام 1857م[12] على المرتفعات التي طالما كانت سدا منيعا لا يمكن الوصول إليه .وهناك مجموعات يتعامل فيها مع الصلاح بطريقة فيها قليل من العفوية مثل ذوي بلال وهي قبيلة قوية وغير

11 - Rohlfs, Reisedurch, Marokko, Brême, 1868, p28

12 - Cf, Hanotaux et letourneux, La Kabylie et les coutumes kabyles 2 éd.

متدينة بالصحراء الغربية. كانوا عندما يذهبون إلى إحدى الغارات يصطحبون معهم أحد الصلحاء، فإذا غنموا من تلك الغارة أكرموه كثيرا، وإذا انهزموا انهالوا عليه باللوم ولم يعطوه شيئا ولم يخرجوه معه مرة أخرى ويعتبرونه «صالحا سيئا[13]»فالولي هنا ليس سوى تعويذة تحمل ويُتخلص منها بمجرد ما يتضح عدم جدواها.

وهناك خاصية أخرى للصلحاء وهو كونهم محليين على العموم. فثمة في الحقيقة صلحاء من مختلف المستويات: حيث نجد الصالح «المحلي» الذي يمارس نفوذه في قرية واحدة، وهناك منهم من يمتد بتأثيره إلى القبيلة كلها أو إلى قبائل متعددة. بيد أن هذا التأثير يكون دائما محدودا.إن لهم إذا أمكن لي استعارة مصطلح قانوني- قدرة مجالية(territoriale). فالصلحاء من الدرجة الأولى مثل شريف وزان ليس له أي تأثير في باقي مناطق المغرب[14]. أما الصلحاء الأكثر توقيرا وإجلالا في البلاد وهم المنحدرون من نسل مولاي إدريس مؤسس فاس، فهم معروفون إلا أن المغاربة لا يزالون ينظرون إليهم نظرة تكتسي الطابع المحلي نوعا ما. كذلك الأمر بالنسبة لعبد القادر الجيلاني[15] الذي أصبح صالحا وطنيا في كل المغرب الكبير مثل أحمد البدوي، وإبراهيم الدسوقي في مصر.وفضلا عن ذلك فقوة النفوذ لا تقتصر على الصلحاء الذين يمتد تأثيرهم امتدادا كبيرا بل إن بين هؤلاء من لا يمارس نفوذه إلا في مجال ضيق نسبيا فيسوده سيدا مطلقا على الأقل. فعندما دخل دوفوكو إلى أبي الجعد (تادلة) قيل له: «ليس هناك لا سلطان ولا مخزن. فليس هنا إلا الله وسيدي بن داود»[16]. إنه الصالح

13 - De Foucauld, Reconnaissance, p.157.

14 - De Foucauld, Reconnaissance, p.163.164

15 - يطلق في الجزائر: الجيلالي بدل الجيلاني، والصواب الجيلاني نسبة إلى كيلان وهي منطقة بفارس وحان وقت تصحيح خطأ نسبة ولادة هذا الولي إلى دجل قرب بغداد، وقد أثيرت هذه المسألة مرات عدة وأخطأ فيها أكثر من متخصص.

16 - De Foucauld, Reconnaissance, p.52.Sep

الأوحد للقسم الأكبر من تادلة، وهو لا يعتمد على أي زاوية دينية، بل إنه ليس شريفا بالمعنى الديني للكلمة، مادام أنه ينحدر فقط، حسب ما يقول، من نسل عمر بن الخطاب: وهذا مثال نموذجي عن الصلاح المحلي الذي لم يخضع لأي تغيير.

ومادمنا في هذا الفصل المتعلق بالتأثير الخاص ببعض الصلحاء والسلطان، فإننا نسمح لأنفسنا بتذكير القارئ بالفصل الذي خصصه فون مالتزان لخصوماته مع حاكم الصويرة الذي أراد أن يمنعه بتاتا من زيارة المغرب بدعوى أنه لم يكن يملك ترخيصا من السلطان. وأمام محنته المتعبة هذه، فكر صاحبنا في القيام بزيارة لأحد صلحاء البلاد هو مولاي إسماعيل شريطة حرصه على ألا يدخل عليه فارغ اليدين. وقد قاده هذا الأخير بأمان إلى فاس مقدما بين يدي السلطان اعتذار مالتزان عن دخوله المغرب دون ترخيص[17]. وليس الأمر بخلاف ذلك اليوم في الداخل، ولا يسع المرء أن يسافر إلى العديد من المواضع إلا تحت مباركة الصلحاء: وهي مسألة سنعود إليها عندما سنتحدث عن الزطاطة. وقد أتينا للتو على ذكر سيدي بن داود الذي لا يقيم وزنا للسلطان ما عدا ذكر اسمه في خطبة يوم الجمعة. ومن هؤلاء عدد كبير من الأولياء من ذوي الشأن الأقل مَن يسهرون على تطبيق القانون في المناطق التي يوجدون بها، وقد أورد موليراس عدة أمثلة لهم في الريف وجبالة. كتاب دو فوكو نماذج منهم في الجنوب المغربي. ويعتبر شيوخ زوايا وزان وتامكروت وتازروالت وأبي الجعد ومغارة[18]وهي شخصيات على السلطان التحالف معها. فبإمكانهم أن يهيجوا،على هواهم، ضد السلطان عدة قبائل عديدة ومسلحة تسليحا جيدا أو أن يمسكونها عنه: ففي سنة 1881 أثناء ثورة بوعمامة حرض

17 - Von Maltzen. dreijahre in n.w .afr.IV pp.159- 156

18 - De Foucauld, *Reconnaissance*, p 293- 303 -342- 352. Que denfeldt. Einth. verbr.t.cp.127. Harris. tafilet. p.145.

علينا شيخ زاوية آيت عطا وآيت إيفلمان، ثم قام بعيد ذلك سحبهم لأسباب شخصية[19].

لهذا نلاحظ أن أهالي شمال إفريقيا – وهي الجهة الوحيدة التي لم تعرف بعد التسلط المسيحي- يضعون صلحاءهم في مرتبة أعلى من السلطان نفسه، الذي يحظى، قبل كل شيء، بقيمة دينية كبيرة باعتباره من سلالة فاطمة الزهراء بنت الرسول. وثمة ما هو أكثر من ذلك: حيث تتوافر كل جهة على حدة على صالح مهاب الجانب تسعى قبيلته إلى أن تجعله فوق كل الصلحاء الآخرين بما في ذلك ولي الأولياء و القطب الأعظم سيدي عبد القادر الجيلاني. وتحكي الأسطورة أنه لحظة ولادة مولاي عبد السلام بن مشيش، أكثر الصلحاء «تقديسا» وتبجيلا عند جبالة، جاءت عشرات الآلاف من النحل من الجهات الأربع للأفق لتحط فوق وجهه[20]، وأن سيدي عبد القادر الجيلاني دخل في هذا الوقت نفسه إلى الغرفة وصاح «لقد ولد من هو أكثر قدرا مني»، وانحنى على وجه الطفل وقبله[21]. وكان سيدي الشيخ جد القبيلة الكبيرة بالجنوب الوهراني، يسمى فيما قبل عبد القادر وكانت يأتي بالخوارق تلو الخوارق. من ذلك أن امرأة غفلت عن ابنها يوما و سقط في بئر، فنادت مستغيثة بالصالح ودخل في جوف الأرض

---

19 - Quedenfeldt. Einth.verbr.t.cp.191

وهذه مناسبة لذكر بعض الأشياء عن قوة شرفاء وزان والشرفاء الأدارسة، ولكن سيكون ذلك خروجا عن الموضوع.

20 - والنحل في هذه الظروف دليل على العظمة. أنظر بهذا الخصوص ما قدمه:
Basset : Histoire de la Conquête de l'Abyssinie trad, F1, Fasc.I ,Paris 1897, P.26 -28.

ونشير هنا أن ابن خلكان يورد أسطورة مشابهة لهذه في ترجمة لعبد المومن مؤسس الدولة الموحدية.

21 - وهذه الأسطورة ذكرها Moulièras, Maroc inconnu, II p.162.163

وفي الكتاب معلومات هامة جدا عن عبد الإسلام بن مشيش (ص 150)

وأمسك بالطفل قبل أن يصل جسمه للماء. لكن عبد القادر الجيلاني كان يظن أنه هو من يستغاث به فجاء جاريا من بغداد في الوقت نفسه، فقال «من كانت تدعو» فأجابه الأول : إنه أقوانا دون شك، فقال: «أنا القطب، ومنذ الآن ولكي لا يكون هناك خلط فلن تُسمَّى بعد اليوم عبد القادر، بل سيدي الشيخ».و هنا نجد مرة أخرى انشغالا بوضع الصالح المنتمي إلى منطقة محددة على قدم المساواة في مرتبة القطب الأعظم عبد القادر الجيلالي [22]. وبهذا تتقلص المسافة بين الصالح وبين مرتبة الرسول: والحقيقة أن «بورجوازية» فاس وغالبية ساكنة المغرب يضعون مولاي إدريس في مرتبة النبي.من ثم بلغ تقديس مؤسس فاس حدا وُجدت معه أحاديث تتنبأ بتأسيس المدنية. ويورد صاحب القرطاس روايات في هذا الشأن مدعومة بشهادات. من أشهرها هذه الأحاديث تداولا على الألسنة أن «النبي سأل جبريل عليه السلام حين عرج به ليلة الإسراء و المعراج على موضع يظهر بياضا في الأرض قال له فرأى بقعة بيضاء تتلألأ نورا فسأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم جبريل عليه السلام : يا حبيبي ما هذه البقعة البيضاء التي تتلألأ نورا في المغرب ؟ فقال له جبريل عليه السلام هذه مدينة لأمتك في آخر الزمان تسمى بفاس ينبع العلم من صدور أهلها كما ينبع الماء من حيطانها»[23] وقد أورد كولد زهير هذا النص لابن بطوطة جاء فيه أن زاهدا بسوريا ادعى أنه أعلى مرتبة من الرسول لأنه كان يزهد في النساء بينما كان الرسول غير قادر على ذلك وحكم عليه بالقتل[24]. وإلى

22 - De la Mart. et lac, documents .2.762 Depont et Coppolani. Confréries musulmanes .p.463.n.3

23 - هذا نص الرواية ما رواها لي سي ميلود بن عبد الرحمان : «النبي سأل جبرائيل عليه السلام ليلة المعراج على موضع يظهر بيض في الأرض قال له هذيك [كذا] مدينة تظهر في آخر الزمان يقال لها ساف وبعد ذلك يقال لها فاس يتبوأ العلم من صدور أهلها كما يتبوأ الماء من حيطانها.»

24 - Goldziher, Muh, II, 290.

أبعد من هذا يذهب بني عروس، قبيلة سيدي عبد السلام بن مشيش، إلى درجة قولهم «إن مولاي عبد السلام هو ألي خْلَقْ الدّنْيا والدِّين، والنبي الله يَرْحمُه مَسْكِينْ». [25]

5 - المقدمون ورثة امتيازات الصلحاء

وتمتد ولاية الصالح إلى كل من يحيط به من أشخاص، وفي مقدمتهم لْمُقَدَّمْ، فلكل صالح حي مْقدّمه[26] الذي يعتبر خادمه وملازمه الحقيقي ويفرغ لكل شؤونه، وينظف زاويته أو مغارته، بل ويبعث الحماسة في الأتباع عند الضرورة. وعندما ما يتوفى الصالح يصبح المقدم الحارس القيم على الضريح[27]، ويتوارث هذه المهمة أبا عن جد حيث يأخذ كل ما يجود به الزوار. وهو ما يجعل من مهمته تكليفا مربحا. وفي غالب الأحيان لا ينتمي حراس أضرحة الصلحاء إلى عائلة الصالح، وهي مهام ،كما قلنا، متوارثة ويتفق باستمرار أن تصبح أسرة المقدم أكثر تأثيرا ونفوذا من عائلة الصالح نفسها التي عادة ما تتلاشى أو تختفي. كما عملت الحكومة الفرنسية على تحويل بعض مقدمي الأضرحة من ذوي الشأن إلى موظفين إداريين كانت السلطة المحلية تعينهم وتعزلهم دون أن تكون ملزمة بأخذهم من العائلة نفسها[28]. وحتى في الزوايا الكبرى بما في ذلك أكبرها أي زاوية مولاي

---

25 - Moulièras : *Maroc inconnu* 2.159

26 - يسمى في عدة بلدان، الشاون فقط.

27 - ويسمى حارس الضريح في المغرب الكبير: وكيل، ويسمى لمقدم بالمغرب، لكن كلمة مقدم في كل الأنحاء تعني مرتبة أخرى عند الزوايا، الصوفية، وقد شكل هذا اللقب إشكالا في الوثائق الإدارية بوهران.

28 - كما هو الشأن بالنسبة لمقدم سيدي بومدين ويجب أن يكون هذا الموظف متمتعا بخصائص أحسن منها التكلم بالفرنسية وتقديم شروحات للزوار والسياح. والمقدم الحالي هو سي المقسوم الذي تخلى بأريحية عن بعض هذه المهام، وأحد المقدمين السابقين لم يكن يكتفي بأخذ الهدايا من الناس بل يعرف أيضا الزوار الأوروبيين. في

إدريس بفاس لم يكن المقدم منحدرا من عائلة الولي المشهور الكثيرة الانتشار بالمغرب، بل إنه ليس حتى شريفا[29]، لكن نفوذه كبير «فبهذه السلطة وحدها يمارس السلطان نفوذه على غياتة، فكل قبائل ضفاف إناون في الواجهة المتوسطية تكلف القبائل المقدم ليسهر بنفسه على شؤونها بفاس. وماذا إذا طلب السلطان شيئا من إحدى القبائل؟ هنا كان السلطان يتصل بالمقدم»[30]، ودون الخروج من المدينة التي نكتب فيها هذه الأسطر ،نستطيع أن نجد أمثلة لمقدمين حلوا محل أسيادهم، وهذا أمر طبيعي جدا في المؤسسات الدينية الصغيرة للجزائر حيث نرى فيه شهرة أحد المسؤولين الإداريين تلتهم «سلطة الصالح، إلى درجة أنه قد ينسى معها هذا الولي».

وهكذا لم تعد الزاوية المخصصة سيدي بوبطقة[31] تقوم بدورها الديني المعروف قديما، وأخذت اسم زاوية تشختون نسبة إلى أحد القيمين عليها وهو تركي على ما يبدو. والمسجد الذي من الممكن أن يكون سيدي بلعباس المشهور بأحداثه مدفونا فيه في القرن السادس عشر الميلادي لم يكن في القرن الثامن عشر سوى مسجد الرقروق أحد أئمة القرن السابع عشر. وعندما وصلنا إلى الجزائر، لم يعد يعرف

حين أن سي المقسوم ليس من هذا النوع فهو خريج مدرسة، وله مبادئ علمية ويقول لنا أننا لا نعرف أي كلمة عن تاريخ الإسلام، وله تأثير في محيطة لكن أن يفيدنا في الإدارة

29 - De Foucauld, *Reconnaissance* p 25.n.

30 - De la Mart, et la document, 1,365. cpr Quedenfeldt, einth Uverbreit, etc, p 191.

31 - وهذا المثال أكثر وضوحا من سيدي بوبطقا الذي كان مشهورا في الجزائر التركية، وكان مدفونا قرب باب أزوم على مشارف البحر حيث كانت كل السفن تحيي قبته دخولا وخروجا. ودافع من الجزائر أثناء هجوم Charles- quint وشق بعصاه البحر حيث غرق الغازي، لكن هذا التحرير يشترك فيه معه أكثر من صالح، أنظر بهذا الخصوص

Devoulx, Edifices religieux de l'ancien Alger, in Rev .afr. XIII année n. 74. mars 1860. p.129130- .cf. hasdo .top. et His .d'Alger . trad. de Grammont . in Rev afr.n.85 .janvier 1871 XV année p.44 et n .et même année n.87.mai .p.224 .

الناس سيدي عيسى. ففي هذه الفترة أصبح يعرف باسم مسجد الرقروق وإمامه هو سيدي عبد الرحمان بن البدوي، من سلالة الولي سيدي محمد بن عبد الرحمان، «الذي من المحتمل أن يكون المسجد سمي باسمه، لو لم يتعرض هذا المسجد للهدم».

6 - قبائل لا تحترم الصلحاء

إذا كان من الصواب القول إن زيارة الصلحاء مسألة عامة في المغرب الكبير، فإنه هناك، مع ذلك، بعض التحفظات التي ينبغي القيام بها: هكذا نجد لدى عدد معين من البدو الصحراويين الخلص أن الأضرحة لا تحظى سوى بأهمية أقل من تلك الحظوة التي توجد في المناطق الأخرى. ويبدو تماما أن تأثير الطوارق، الأقل تدينا من الآخرين، كان تأثيرا أقل بكثير مما هو عليه عند لقبايل مثلا حيث يُعتبر الأهالي بربرا خُلّصا شأنهم في ذلك شأن الطوارق. هذا ما يستخلص من كتابات دوفايري Duveyrier ودبورتر Deporter وبوسييل Bissuel[32]. وعدد من قبائل الصلحاء من الطوارق عبيد

---

32 - أخذ هاذين المثالين. من كتاب دو فوركس السابق، وهذا الكتاب على أهمية غير معروف كثيرا، كما نجد فيه أمثلة كثيرة على ما نحن بصدده، وقد لا يوجد أحيانا وكيل في ضريح الصالح ويتولى الأمر أخ له في الصلاح، وهكذا نجد في زاوية في الجزائر القديمة قبر سيدي عيسى بن لحسم والتي سيدفن فيها فيما بعد الشريف أحمد بن سالم العباسي الذي نسي تماما: Devoulx, op Laud, Rev. Afr.. XIV annèe n.81.mai1870.p.281
وهكذا الكتاب عن الصحراء مصادره روايات شفوية وفي أحسن الأحوال معلومات من الإدارة والرحلات التي قام به السيد فلامان في أقصى الشرق الوهراني قد أظهرت صحة المعلومات المتعلقة بهذه المنطقة، والكتاب لا يتضمن سوى وثائق جغرافية وسياسية
H. Bissuel : *Les Touaregs de l'ouest.* Alger 1888. .... De l'ouest, Alger 1888,
وهو نتيجة حوار مع رئيس مكتب العرب، وسبق سجناء طوارق بباب أزوم بالجزائر.
أنظر:
Du vegnier, *Touareg de Nord,* p.332 Sep, cf, Rin, Nos Frontières sahariennes. Alger. 1886 .p. 10 (extr. De la rev .afr).

«إمراد» أو أنهم على الأقل تابعين لبعض القبائل التي تفتقر إلى أي خصوصية دينية[33]. ولا يحظى الصلحاء عند ذوي بلال، وهم بدو رحل فاسدون في جنوب المغرب، بأي احترام: فقد كان الصلحاء يعودون خائبين لا يلوون على شيء»، «وإذا ما ألح عليهم الصلحاء بالسؤال ،كانوا ينعتونهم بالكسالى ويردونهم ويسخرون منهم»[34]. ويبدو بصفة عامة أن الرحل الحقيقيين المفتقدين لأي تجمع مخصوصٍ، هم أقل تدينا. وليس هذا أمرا خاصا بالمغرب الكبير. فقد قدم لنا بلكراف Palgrave بدو شبه الجزيرة العربية كـ «بدو عاجزين عن تقبل التأثيرات الجادة، والخضوع لهذه المعتقدات الإيجابية وإلى هذه العبادة المنتظمة وهي كلها أشياء أضفت على ساكنة الحجاز طابعا قارا وواضحا تماما «ونُظر إليها كساكنة لا تتقيد بأي من الواجبات الدينية الإسلامية»[35]. هكذا تطور الدين داخل التجمعات وسيكون هذا التطور أكثر حماسا ونشاطا.

و نجد أحيانا حتى عند السكان المستقرين أو الحضريين في المغرب بعض التصرفات أو ردود فعل ضد الصلحاء: ويفسر هذا بأسباب خاصة. وهكذا نجد بني مسارة وهم الخدام الدينيون لدار وزان غالبا ما يغيرون على المدينة[36]، ومرد هذا إلى أنهم من الناحية الدينية «هم خدام شرفاء وزان ولكنهم من الناحية السياسية هم معارضون للفرع الأول من الأسرة أي لابن الحاج عبد السلام... فعلى طول طريقهم إلى قبر مولاي عبد الله الشريف كانوا يسرقون حتى غطاء القبر. ومن

33- De porter : Op Laud, p351, 362 et passin

ورغم ذلك فالكتاب نفسه يذكر صلحاء من الطوارق مهمتهم حراسة القوافل ولهم ثروة معتبرة. وقد تكون هناك حالة خاصة، فالقبيلة المعنية غنية ولاشيء يشير أن لها طابع صلاح.

34 - De Foucauld, *Reconnaissance,* p 121.

35 - Palgrave. V*oyage dans l'Arabie centrale*. 1.p.14- 16.

36 - Mouliéras : *Maroc inconnu*, II, p.469.430. de la Mart. et lac. Document, p.374- 375.

جهة أخرى كانوا في غاراتهم لا يكفون أذاهم حتى عن بنات الشرفاء من غيرهم[37].

ونجد أيضا في المناطق الأكثر تدينا حكَما، وخاصة يبين المتعلمين وأقوالا ضد الصلحاء من قبيل «الكل وليّ وعدته»[38] ومن قبيل: «وكم من يزار مقامه في النار» ومن قبيل أربعين وليا مقام مولاي عبد القادر الجيلاني تشد في ركاب صحابي، ولكن هذه الأقوال لا تستطيع أن تنقص من قيمة زيارة الصلحاء عند الأهالي المعاصرين أو الحاليين لشمال إفريقيا.

37 - de la Mart et lac Document, I 374- 375.

ومن عادة قبائل جبالة في غاراتهم اختطاف الأطفال الشواذ الجميلين ذكورا وإناثا

Cf même ouvrage., p 408, 441, 458 et Moulièras, Maroc inconnu, II 14, 64, 39, 51, 76 et 6

38 - Moulièras, op laud 458 -486.

الفصل الثالث

مدلول كلمة : صالح

1 - تاريخ كلمة الصالح

كتبنا في الصفحات الأولى من هذا العمل عدة مرات الكلمات التالية: الصالح، وسيدي، والشريف، وسيكون من المفيد ضبط كل اسم على حدة ما استطعنا إلى ذلك سبيلا.

فنبدأ بالاسم الرئيس الذي نكرره أكثر من مرة، والذي اعتقدنا أننا خلقنا له مصطلحا جديدا هو الصلاح، ولنحذف منذ البداية اشتقاقا شائعا للكلمة لكنه غير صحيح تماما و هو الذي يذهب إلى أن كلمة «مارابو» مأخوذة من المربوط الذي يعني المقيد والمكبل والموثق. فسيخلق توازيا غريبا في الدلالة بين مدلول الكلمة في العربية ومدلوله الديني في الفرنسية المأخوذ حسب العلماء[1] من الكلمة اللاتينية religare التي معناها أيضا المربوط، ومع الأسف يجب استبعاد هذا التقارب المغري.

2 - رباط المرابطين

فالعرب لا ينطقون مربوط وإنما : مُرابط أو مْرابط، فعلينا إذن كتابة مرابط وليس «مارابو» الذي هو تحوير أو تغيير مسؤول عنه

1 - أنظر إشارة هامه في الموضوع عند :
M.a, Réville : *Prolégomènes de l'Histoire des Religions* p.5

الأوروبيون فقط، فيكفي نطق كلمة مرابط لنرى أن لا علاقة لها بكلمة مربوط[2] وهذه الكلمة مرتبطة في الجزائر بمعنى غير القادر أو العاجز، وقد يكون مجلبة للضحك عندما نقول «أسيدي هل هذا مربوط؟[3]» وتعني كلمة مربوط عند الكتاب المغاربة أحيانا معنى مْسَبَّل الذي يعني حرفيا المخصص ولكن بمعنى خاص يطلق على المحاربين الذين استماتوا في الدفاع عن موقف من مواقفهم الميئوس منها حتى الموت. ولا يزال هذا التقليد سائرا عند لقبايْل عندما كنا نقوم بأبحاثنا: إذ يقسم مجموعة من الرجال على استعدادهم للدفاع عن قريتهم حتى الموت، ولكي يمنعوا أنفسهم من الهرب كانوا يربطون بعضهم بعضا. وكانوا يقاتلون إلى آخر واحد منهم، وكان جنودنا مضطرين عدة مرات إلى أن يمروا أو يدوسوا جثث هؤلاء امْسبلين كما يُطلق عليهم لقبايل[4]. وكون هؤلاء الرجال مربوطين فيما بينهم عند لقبايل قد يفسر في رأينا الدلالة الخاصة لكلمة مربوط في هذه الحالة.

وبمجرد ما نعترف أن كلمة Marabout تحريف لكلمة مْرابْطْ لم يعد هناك شك في الاشتقاق، لأننا سنرى، فيما بعد، أن الكلمة ذات علاقة نحوية مباشرة مع كلمة رباط[5] المعروفة دلالتُها. لقد

2 - وقد استغربنا من وجود خطأ من هذا القبيل في كتاب هام من قبيل
Hanoteau et letourneux de Kabylie.p.83 n.1

3 - ورغم ذلك نجد سيمارسكي في معجمه العربي الفرنسي يعطي كلمة مربوط معنى الصالح والورع والتقي، وقد يوجد هذا الاسم بهذا المعنى في بعض النصوص ولا نشك أن يكون كاتبه غير مغاربي لأنه لم يرد قط في الكلام العربي مربوط بمعنى مرابط.

4 - أنظر المقال الهام لروبن:
Les Imessebelen, in Rev .afr XVIII année, n° 108, ..dec.1874p.401 -402.

وهو يمكن مقاربة هذه اللفظة باسم ضريح تدجين مسبلين، الذي أشار إليه باسي:
Sanctuaires du Dj.Nefousa, in journ.asiat, mai-juin 1899, p 469

5 - Depont et Coppolani, Confréries musulmanes. p.123, n°2

رباط مكان معزول للتعبد «ويضيفان مرابط» وهذا لاسم لا يمكن أن يعني في مكان آخر سوى الاصطبل، وليس الصالح (انظر القرطاس) وكل الكتاب رجعوا بأصل كلمة مرابط إلى الدول المرابطية في حين أن الكلمة وموجودة قبل هذه الفترة.

كانت الرباطات عبارة عن حصون أو قلاع مبنية على أطراف الدول الإمبراطوريات الإسلامية ،حيث تدافع حامية من المتطوعين على أرض الإسلام في وجه أي هجومات خارجية. إنها نوع من أنواع الجهاد المفروض عند المسلمين[6]، حيث كان يُقصد إلى الرباط أملا في الحصول على الدرجات في مملكة الله، مثلما كان الناس عندنا يتجندون، في ما مضى، ضمن فرسان مالطا. ونجد في النصوص عبارة مثل «حتى تقضي رباطنا»[7] أي المقام (لمدة محدودة) في رباط الجهاد. وكانت هناك عدة رباطات في القرون الأولى الهجرية من المحيط الأطلسي إلى بلاد الهندوس[8] التي كانت بالكاد مرتبطة فيما بينها بأرض الإسلام، حيث واظب فيها المجاهدون باستمرار على الحرب وممارسات التقوى والورع. وكان الناس يبعثون لها بالأبناء لبعض الأوقات ليحصلوا فيها على درجة من الدرجات. بعد ذلك لم يعد عدد من الرباطات سوى مواضع للعزلة والتعبد وأخذت هذه الكلمة معنى دير. هكذا بقي اسم الرباط في بعض المدن التي أصبحت تحتضن إحدى هذه المؤسسات: فمدينة تازة بالمغرب كانت تسمى قديما : رباط تازة. لكن المثال المعروف جيدا هو رباط الفتح التي هي الرباط الحديثة أو Rabat عند الأوروبيين، والتي تقع قبالة مدينة سلا[9]. وكلمة رابطة كلمة مرادفة في معنييها ويستعملها الكُتاب[10] أحيانا كثيرة. وقد تم في الجزائر عام 1832م

---

6 - فهو فرض كفاية وليس فرض عين، وهو ما يعلي من قوة أو درجة من تعاطاه.
7 - Kosegarten , chréstouathia arabica , Leipzig, 1823,41.
8 - La Géographie d'El idrissi , ed.. jubert, Paris 1836.
9 - أنظر هامش هاما حول كلمة رباط في:
Fischer.Marokk, Sprichw, p.2 du t.ap (Ex . Mitt.d.d Sem.f.or.Spr jahng, I. 1893)
10 - كانت هناك رابطة قرب وهران ... إليها يوسف بن تاشفين فارا من عبد المومن، كما يشهد بذلك الزركشي (تاريخ الموحدين...) وابن بطوطة....

هدم مسجد صغير، تحت المسجد الحالي لصائدي السمك، حيث دُفنت صالحة تدعى الزرزورة. ويسمى هذا المسجد في العقود: مسجد الرَّابْطَة التي ترجمها دوفولكس Devoulks بشكل صحيح بـ «مسجد الولية»، لكن أصبح يطلق عليه مؤخرا «مسجد لمرابطة». وربما كان على دوفولكس أن يترجم رابطة بالدير couvent أو على الأقل «مَنْسَك» ermitage؛ ذلك لأننا لم نعد نفهم أبدا ما تعنيه كلمة رابطة إلا في أيامنا هذه، حيث أصبحت الكلمة مهجورة في اللغة المتداولة، وتمَّ تحويلها إلى الـمْرابْطَة وهي كلمة شائعة اليوم تدل على وليَّة من الولِيَّات، بينما لا تستعمل كلمة الرابطة عندنا بمعناها الأخير.

3 - حركة صلاح منذ القرن السادس عشر

توجد معلومات عن أصل المرابطين، وهي كلمة تعني «الصلحاء»، مبثوثة في مرويات صاحب «القرطاس» وابن خلدون والبكري... إلخ فقد كان رباط ابن ياسين، منشأ ظهور طائفة المرابطين، حصنا منيعا إلى حد ما شأنه في ذلك شأن كثير من الأديرة. ولا غرو أن هذا الحصن كان نقطة انطلاق الغزوات الناجحة التي قادها المرابطون باسم الجهاد من أجل مد سيطرتهم على المغرب الأقصى. وهكذا نجدهم قد رفعوا عاليا كلمة المرابطين أي مبشرين دينيين مقاتلين. لكن هذا الاسم لم يصبح شعبيا إلا بعد تلك الفورة الدينية التي عرفها القرن السادس عشر، والتي ألمحنا إليها أعلاه. في هذا العصر ظهر في جنوب المغرب الشرفاء الذين سيحكمون البلاد، وبدأت هجرة المرابطين الصلحاء. هكذا وبعد انحدارهم من رباط سوس ودرعة، والساقية الحمراء بصفة خاصة، كما تحكي الأسطورة مبعثهم منها جميعا، انتشروا في كل أرجاء بلاد البربر.

4 - مدلول كلمة مرابط

وكان أوائل هؤلاء الشرفاء مرابطين مجاهدين بحيث أن أنهم اكتسبوا حظوتهم من جهادهم ضد البرتغاليين، كما يدينون بتألقهم وإشعاعهم إلى نجاحهم في طرد الكفار من أرض الإسلام. لكن وبعد انتهاء المرحلة البطولية تلك، كف دعاة جنوب المغرب الذين ذهبوا لنشر الإسلام في سكان المغرب، عن أن يكونوا مجاهدين بل تحولوا فقط إلى دعاة لنهضة دينية حديثة في إفريقيا الشمالية، وأصبح الرباط القوي مؤسسة دينية حقيقة أي: زاوية.

وهكذا نجد عند ابن خلدون إشارة إلى مصلح عربي عند رْياح حيث قدم نفسه بالصفة الدينية وأسس زاوية (وهو الاسم الذي استعمل بدل رباط) فسمي مرابطا هو وأتباعه، وكان ذلك سنة 1305 أي قبل الشرفاء المغاربة ،ثم ظهر فيما بعد أحد الزعماء العرب يسمى بالشيخ الحكيم والمْرابط حيث يتداخل في التسمية السياسي والديني. ووجدنا بتلمسان كتابة على شاهد قبر صالحة توفيت سنة 1472، وصفت بأنها مرابطة وهذا نعت لا يمكن أن يكون إلا دينيا بحتا[11]وبإمكاننا بدون شك تعداد الأمثلة. وهكذا أصبح المرابط في القرن السادس عشر قد تحول من دوره العسكري إلى دور المصلح والداعية وأصبحت مهمته سلمية شيئا فشيئا وسيصبح المرابط شيئا فشيئا وليا إلى درجة أن الناس لم يجدوا تسمية تعني الرجل الزاهد إلا هاته[12].

لكن كلمة «صالح» أصبح لها عند الناس مفهوم أكثر توسعا وعموما، فهي تعني اليوم كل أنواع الأولياء و«البلهاء» والأغبياء

---

11 - قبر الحاجة المرابطة ياسمين.
Brosseland : *Mémoires épigraphiques et historiques sur les tombeaux des beni Ziyane et de Boudil*, dernier roi de Grenade, découverts à Tlemcen,1 Vol. Paris, 1876, p. 91- 92.

12 - Cpr : Houdas, Ethnographie de l'algérien p.58.82.

والحمقى، والصرعى، وكل من له معتقدات كونية، ومن له إشراقات علوية، وأكوام الحجارة، وبقايا زيارات الأضرحة، والأشجار[13]، وكل بقايا الأشجار القديمة، فكل هذه الأشياء تسمى الآن صلحاء[14]. فأسود زاوية سيدي امحمد بن عودة (زمورة) صلحاء،[15] واللقالق الموقرة صلحاء[16]، وشجرة البرغموت أو الليمون أيضا صالحة، وطيور السنونو والخطاف التي لا نعرف منذ مدة ما السبب وراء عدم لمسها صلحاء أيضا[17].

وورود كلمة «صالح» في مقابل ولي يبدو أمرا خاصا بالمغرب الكبير، وهنا نستعمل المغرب الكبير بمضمونه الديني -حسب هارتمان- الممتد إلى مصر حيث نجد قبور صلحاء مسماة إلى حدود الإسكندرية.[18] ولكن إذا كانت هذه الكلمة أو الاسم مستعملة عند العموم ،من النيل إلى المحيط، فإن العلماء لم يستسيغوه جيدا فهم يستعملونه في كلامهم اليومي ولا يستعملونه في كتاباتهم. ففي كتب التراجم المغربية التي تخلو من حياة العلماء، يستعمل المؤلفون قليلا كلمة «مرابط»، وحتى عندما نجدها مستعملة فإنها تستعمل بمعناها القديم[19] حيث أدرك العلماء ما في هذه الكلمة من ممارسات يرفضها

---

13 - وكل من كان بتلمسان يعرف الشجرة التي كان يرمي عليها المسلمون حجارة عند المرور معا والموجودة في طريق سيدي بومدين، وقد سألنا شخصيا من الأمر ولم نتوصل بأي جواب إلا أنها شجرة « صالحة»

14 - Depont et Coppolani, confréries ......p130, p144.

15 - بل لهم معجزات Cf. Trumelet, Algérie légendaire, p.442

16 - Dozy, Supplément aux dictionnaires arabes, s...

17 - Seddik (aléas, A robert) Superstitions et croyances arabes in Rev., olg.13 année, ...Sem, n° 3.22 juill. 1899, p.86

18 - Hartman : Aus dans Religions le beu des libychen wuste in arch.f. rel wiss, Ip.272- 273.

وهو مقال يضم معلومات هامة جدا عن الصحراء الليبية بما في ذلك مهدي السنوسية.

19 - محمد بن الطيب القادري الذي يخص كتابه «نشر المثاني» بعدة تراجم لأولياء تحت اسم واحد هو مرابط، لكن هذه الشخصية للمرابط الرئيس أبو عبد الله محمد

الإسلام، فإذا أردت أن تحرج عالما أو شيخ تلمسان هو أن تسأله عن شجرة النسب التي ينحدر منها ممن أشرنا إليه أعلاه، فإنه يجيب بطريقة ذكية لا تجرح «متهربا» عالما أنه أن ليس عليه مس الشعور الجمعي للعامة.

5 - مدلول كلمة ولي

وعندما يريد المسلمون وصف أحد ب «الصلاح» فإنهم يفضلون استعمال كلمة «ولي» الذي يعني حرفيا القريب من الله. وقد درس كولد زهير مختلف معاني هذه الكلمة في القديم عند المسلمين فوجد أن في القرآن نفسه معاني مختلفة، فقد ورد بمعنى الولي الذي يطالب بالانتقام[20] أو حليف إلى المعنى النهائي «صديق الله»[21] ويحيل إلى تفسير البيضاوي لهذه الآية[22]، ويتداول هذا الاسم بهذا المعنى بشكل مقبول

العياشي هو قبل كل شيء شخصية محاربة ودينية في الوقت نفسه فقد تصدى الجهاد في ثغور المغرب، فلدينا إذن مثال من القرن السابع الهجري يحمل اسم مرابط في معناه الأول. ومن أجل التفصيل في حياة العياشي أنظر: «نزهة الحادي» حيث أورد قصيدة في مدحه وقارنه بالرباط، كما نجد في الكتاب نفسه أمثلة لكلمة مرابط بمعنى الولي، «الوفراني» (...) وكتب كولد زهير أنه لم يجد في الأدب الإسلامي المشرقي أمثلة لكلمة مرابط بمعنى ولي، ويشير إلى أنه يجدها بمعنى المحارب، ونظيف إلى أننا نجد في أفريقيا الشمالية كلمة مرابط بمعنى ولي، ويشير إلى أننا نجدها بمعنى المحارب، إلى وتوجد أسرة شهيرة بتلمسان تحمل هذا اللقب (نزهة الحادي) والأمثلة في الأدب كثيرة في هذا الاتجاه.

20 - قال تعالى : ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا﴾ (سورة الإسراء: الآية 5-6)

21 - قال تعالى : ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون، لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾

22 - أولياء الله الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة» تفسير لبيضاوي ص: 214 المطبعة العامة : 1344هـ

Goldziher, Muh, II, p. 286.

عند المغاربة، ولاحظ كَولد زهير[23] أن الشائع في المشرق هو استعمال كلمة ولي ،بمعنى الذي يناديه الله دون أن يكون ذا تكوين ديني ولا ورع ولا زهد أو تصوف، وكذلك الأمر في المغرب حيث إن هذه الطرق المختلفة تؤدي حتما إلى الولاية..

6 - مدلول كلمة مجذوب

أما بالنسبة للعموم فإن كلمة الولي تحيل عادة على «السعيد» الذي جذبه الله أو المجذوب. وتسعف كلمة مجذوب هذه لتعني ذوي الإشراقات والحمقى والبهاليل[24]، وغالبا ما يؤخذ اسم البهلول بشيء من القدسية.

7 - مدلول كلمة بهلول

فقد يزداد بهلولا ويصبح مجذوبا بإذن الله. فالولاية تشمل الكرامات والقدرات الخارقة أي ما يسمى بالتصوف[25]. وعلى خلاف ما يدعي ريني[26] فإن الولي يسمى بذلك أثناء حياته، بل إن العموم يعتبرونه القوى حتى بعد وفاته[27]. والواقع فإن البهاليل والمجاذيب والأولياء الأحياء يتكاثرون حولنا بسرعة في كل إفريقيا الشمالية.

---

23 - Goldziher,op. laud,p.287- 288.

24 - فلنلاحظ التشابه في الجذور التالين بهلل وبهل، وبله وهبل التي لها معاني متقاربة وهذا كثير في العربية.

25 - ونترك بطبيعة الحال المدلول الحقيقي لكلمة، وكذا مرتبته المستعملة عند أهل التصوف.

26 - Rin, Marabouts et Khouans, p57, cf contra Moulièras Maroc inconnu, II p.131.132 n

27- Goldziher, op land, p 288.cf de la Mart. et lac, document II, 771
حيث نرى بوعمامة يفسر هذا الرأي لصالحه.

8 - مدلول كلمة مولاي

وكلمة مولاي التي تنطق هنا مولى مشتقة من الجذر اللغوي نفسه للولي، لكن لها معنى مختلف تماما[28] ويحتفظ أيضا بمعنى آخر، وفي مفهومه الحالي بشمال إفريقيا هو : «السيد والمالك» ولكنه في المغرب يعد عنوانا أو لقبا تشريفيا يعطى للشرفاء، علما أن أمراء من سلالات مغاربية أخرى قد حملت هذا الاسم[29] ويبدو أنه كان حكرا على الشرفاء الذي أسسوا في القرن السادس عشر الدولة المغربية كما توجد حاليا في شمال إفريقيا، وإذا كان بعض ملوك هذه البلاد كانوا يلقبون به من قبلهم، فإنه لم يخص بعد إلا بهم، ولعل لهذا السبب كانوا ينعتون ب «جلالة» المولويين، وأمراء مولويين[30] وقد جعلوا من هذا الأمر علامة

28 - أنظر المفاهيم القديمة للمولى عند Goldziher, Muh,st.holle 1889.p 104-sep مع إحالات هامة وكلمة مولى
Dozy, Supplément, sup Borgés, Histoire des beni –ziane, Paris 1852.

29 - من بينهم بني زيان :
ومخطوط: «نظم الدر» الموجود بمدرسة تلمسان رقم 14، وأنظر خاصة ملحق ص 547. وأنظر أيضا عبارة مولاي أبو حمو في قصيدة في مدح الحاكم الذي حكم ما بين 1359 و1389 أي قرنا قبل ظهور الشرفاء. كما توجد أمثلة أخرى في «بغية الروض» ليحيى بن خلدون، في البيت السابع من القصيدة ص 58 (خلف)، الموجودة بكسبة الجزائر رقم 862، علما أن يحيى بن خلدون توفي سنة 1379، وفي النقوش التي وقف عليها بروسلار بتلمسان، كما كان يسمى الملوك العبدلاويين عادة مولانا وأمراء عائلتهم مولاي.
(Brosselland, écrit moulaye) voy. Brosselard, op land, p.58.96.99 et, 97, 117, 135, 136)

وفي «روضة النسرين في دولة بني مرين» عدة سلاطين من بني مرين يسمون: المولى»
(muss de la biblio d'Alger, n° 17 37n°)

وهذا الاسم شائع في المشرق لكنه ليس له معنى الولي كما أصبح في المغرب الكبير.

30 - أنظر الوفراني: «نزهة الحادي» والإمام العلوي والمقام المولوي وللإمام العلوى: وكتب هوداس أسفل هذه الصفحة: «ملوية هو الواد الأهم في الحوض المتوسطي بالمغرب حيث يعبر مناطق السلطان فيها غير معروف. وهكذا كانوا -بدون شك من أجل تأكيد سلطتهم- يخذون أحيانا اسم أمراء ملويين أو من ملوية» cf.p.168 وتبدو لنا هذه الفرضية ضعيفة. والنص العربي الثاني الذي يبدو لنا مفيدا في هذا الشأن هو مقطع

مميزة لسلالتهم، لكن كان للاسم دلالة خاصة. كما أن جميع الصلحاء يدعون عموما أنهم شرفاء، وشاع في المغرب تسميتهم بمولاي وهو ما نستعمله اليوم لغير الأولياء، فنقول مولاي إدريس ومولاي عبد السلام بن مشيش ومولاي الطيب، وهذا ما شاع في المغرب هنا وهناك، وبوهران وبالصحراء وعلى طول وتوات كلها وامتدادها[31]. ولا يوجد إلا هذا الاسم وحده في كل شمال إفريقيا.

9 - مدلول كلمة سيدنا

وكلمة مولانا أي سيدنا أقل شيوعا عند العموم من كلمة مولاي الدالة على الاحترام، حيث تستعمل في مخاطبة الله أو السلطان أو شخصية محترمة جدا[32]، ولا توجد صيغة تأنيث لكلمة مولاي، ولم تسم أي صالحة بهذا الاسم[33] كما أن كلمة مولاي تستعمل أحيانا كاسم علم، في حين أن الباقي: الشريف والمرابط ولالة ففي أغلبها ألقاب تشريفية[34].

من رسالة سلطانية حيث يتم بلقب فيها الكاتب السلطان بعبارة مولى وحفيد آيت. كما أن الاشتقاق النحوي لا يسعف في أن يكون مولاي وملوية من الجذر نفسه، وأنظر:
Moulièras, Maroc inconnu, I p161 n°1.

على أن صيغة ملوية عند الأهالي ستكون إما مولوشة أو ملوى وهذا موضوع تحد ثنا فيه كثيرا.

31 - مثل مولاي كندوز. Voy: de Mart, et Lac ....., Doc, W, 174 -175

32 - Rolfs, meine erste Aufeuthalt in Marokko. p.166

حيث يقول أن مولانا لا تقال إلا لله والرسول، وكلمة سيدنا خاصة بالسلطان، وهذا خطأ مزدوج وأنظر أيضا Goldziher, Muh, st: I p.264

33 - ولا يوجد عند المؤرخين المغاربة إلا أمثلة ناذرة للقب مولاتي. ويشير ابن خلدون إلى زيكن ابن مولاتي تامي نوت :

34 - وكل هذه الأسماء تظهر في الكتابات الرسمية، ونجد اسما غريبا جدا: مولاهم عند الزركشي: chronique, trad, Fagnan, p.81.95.98.124 et p.45.52, etc 8

ويوجد في الخطاب الذي نجد فيه أيضا «لالاهم» أي «سيدتهم» ويوجد بالجزائر شارع لا لاهم يبدو أنه اسم مسجد أهدي قديما لمرأة زاهدة بهذا الاسم
Cf. Devoulx : *Edifices religieux de l'anc.* alger in Rep.Afr, VII ans n° 45,...1864, p199.

10 - مدلول كلمة سيدي

وتستعمل كلمة «سيدي» عادة لتعني وليا (سيدي عبد القادر الجيلاني). وتستعمل كلمة سيدي في الباقي لكل شخص نحترمه. وسيدنا تدل على احترام أكثر، لكن من الخطأ أيضا أن نعتقد أنه لا يتوجه بها إلا إلى الله، بل تستعمل أيضا لكل الأشخاص المحترمين، وتعطى كلمة سيدي في الجزائر إلى كل من يسمى محمدا تكريما لاسم الرسول مهما كانت الظروف ولو كانوا أطفالا[35]، ويقال في المغرب للسبب نفسه : سيدي محمد إذا تعلق الأمر بسلطان يحمل هذا الاسم بدل مولاي محمد[36]، لكن نجد عبارة المولى محمد الذي يعتبر في المغرب قطب الشرفاء.[37]

11 - مدلول كلمة سي

وكلمة سي[38] ترخيم أو اختصار لسيدي خاصة ب «المثقفين» أو من يسمون عموما في المغرب فقهاء، فحلم أي طالب من طلبتي بمدرسة تلمسان أن يحيى بالفقيه عند مروره بالشارع.

ويجب أن نضيف إلى هذه الأسماء اسم ياغموراسيم، أول ملوك سلالة تلمسان إذا كان صحيحا أنه ترجم إلى «فحلهم» أي سيدهم وأنبلهم.

35 - وفي هذه الحالة نبهنا موليراس أن سيدي فأل حسن للطفل ليصبح ذا شأن.

36 - Cf. Elie de la Primandaie, Les villes Maritimes du Maroc, in Rev of. XVI rus n°93, mai-juin, p.209, n°3.

37 - نجد في كتاب الاستقصا مثلا: «لما فرغ أمير المؤمنين المولى محمد رحمه الله من أمر الوفود أخذ في الاستعداد للنهوض إلى الغرب فخرج من مراكش في عسكر الحوز» وهذا ليس إلا مثالا قد نجد له أمثلة أخرى.

38 - تصبح في المغرب فقط س : نوض آ س أي قم يا سيدي (Maroc inconnu Ip.71) وفي كثير من قبائل الجزائر تختص سيدي إلى سي محمد، وهذا أمر مع ر ف في جميع اللغات.

12 - مدلول كلمة عمي

ويستعمل العباديون لقب «عمي» للدلالة على الأولياء[39] وكان شائعا بدون شك منذ القديم عند البرابر مادمنا نجد آثار الاستعمال وسط البلاد السنية، فعمي موسى اليوم هو رئيس الدائرة المختلطة لمقاطعة وهران.[40] ولما مر الزاهد العياشي بوركَلة حيث يشكل العباديون أغلبية فوجئ واستغرب بأن هذه التسمية تطلق على الشيخ والأستاذ[41] لأن عمي تطلق على الأحياء كما على الأموات، ولدينا أمثلة على «أبونا» التي تلقب بها الشخصيات المعروفة بورعها وفي الباقي تستعمل كلمة «بويا» أي : أبي بالعربية وهي عبارة دالة على الاحترام. ففي تلمسان يقال «بويا» أو «بَّا» [42] أي أبي، وهذا ما يذكرنا بصيغة باه التي أشار إليها لاندبرغ كما نجد دائما في العربية الجنوبية اسما لشخص له عمر معين[43] وكلمة بابا (بترقيق الباء) تستعمل أحيانا في معنى مشابه، حيث نجد بابا عروج القرصان الشهير، وأحمد بابا عالم تومبوكتو الشهير وعدة أمثلة على ذلك، ويضاف اسم «أم» عند العباديين أحيانا للدلالة المرأة المحترمة.[44]

39 - Voy, de calassanti-Motylinski, djebel Nefousa passin. Cf. Rev Basset, Sanctuaires du djebel nefousa, in journ, asiet, mai- juin 1899, p434, et id. juillet aout, 1899, pp.102,103,113.

40 - ورغم ذلك يجب الاعتقاد أن هذا البلد كان في القديم تحت تأثير الرستميين بتيارت الذين كانوا عباديين، ومن الملاحظ أن أهالي وهران لا ينطقون عمي موسى، بل عمك موسى، وفي لقبائل عمي تدل عل احترام من نوع خاص
Mouliéras légendes merveilleuses de la GR.Kab.1.236

41 - وتسمية الشيخ تعطى أيضا للأولياء، وهذا ما هو شائع في مصر، وما هو شائع أيضا في تراتبية الطرق الدينية

42 - وكذلك الأمر ما أو أمي، ففي الجزائر يجد الأهالي بويا مستغلظة، فيقولون بابا أي أبي، وكذلك إما لأمي.

43 - Comte de land b erg, Arabica,v.p.141 n1.

44 - أنظر أمثلة عديدة على ذلك عند R.Basset et Calassanti Motylinski, op land

13 - مدلول كلمة لالة

والكلمة الأكثر تشريفا للمرأة في شمال إفريقيا هي لالاّ أو لالة، (سيدة)[45] المخصص لكل الصلحاء، وبدون أدنى شك فهو اسم بربري[46]، لأننا لا نجد له أي استعمال في المشرق باستثناء مصر التي يمكن أن يكون البربر قد أثروا فيها، فنقول في مصر يا ليلي أي يا ليلي: بمعنى يا سيدتي[47] وأردنا النظر في العبارة مجازا بمعنى: ياليلي، ولا يعتقد كَولد زهير أن هذا التخريج صحيح. إذن علينا الاحتفاظ بمعنى لالة في البربرية. وهذا الاسم ذائع وشائع في البلاد البربرية حيث يحمله البربر ببعض الدلالات[48].

وتسمى نساء الصلحاء في لقبايل لالة[49]، لكن إذ حدث أحيانا أن صالحا تزوج امرأة من لقبايل فإنه يرفض أن تسمى به لأنه خاص بهذه الفئة[50]. ومن الغريب أن نجد أن هؤلاء الصلحاء الذين يدعون أن أصلهم عربي يريدون أن تحتكر نساؤهم اسما بربريا كلالة، ورغم ذلك نجد نساء زاهدات وصلن إلى درجة من الصلاح (في لقبايل) تحمل هذا الاسم لكن لقبايل يسمون صالحاتهم ب «إما» التي يضيفون إليها أحيانا اسم لالة مثل لالة إما تيفلوت قرب لبليدة. والاسم الحقيقي

---

45 - أنظر رحلات كثيرة في معجم دوزي
Légendes merveilleuses de la grande – Kabylie .148.n.171.

46 - نجده في نصوص لقبايل لموليراس

47 - Goldziher, augend-und st assen poésie in kairo, in ….. M.G XXXIII, Bd.1879, p.618 Sep.

ويشير المؤلف أن هذه العبارات منتشرة كثيرا في الأغاني الشعبية بمعنى : حبيبي.

48 - يشير كولد زهير إلى فقرة عند: Nachitigall, sahara und SudanII p.610

يذكر فيها أن النساء في قهر ملك الباكمريين يلقبن بلالة حيث يمكن أن يصل التأثير البربري إلى هنا إذ الأمر يتعلق بالاسم نفسه.

49 – كما تستعمل كلمة لالة في الجزائر بمعنى سيدة كما في الأغنية الشعبية الشهيرة : يا لالة بهواك بت نخمم سلمت في الحانوت والمتعلم

50 - Hanoteau et letourneux, kabaylie ….II p84

الذي يعطى للصالحات هو السيدة الذي ينطق سيْدة[51] وهي التسمية الوحيدة التي يستعملها المؤلفون ولا نجد غيرها في التراجم بالمغرب الكبير وهو نفسه المستعمل في المشرق.

ونستعمل في المغرب كما في المشرق: ستي التي تعني السيدة، والولية الأكثر شهرة بتلمسان تسمى لالة ستي، فنحن أمام كلمتين الأولى بربرية والثانية قد تكون عربية لهما المعنى[52] نفسه. وكان بالجزائر قديما مسجد يسمى : مسجد ستي مريم[53].

14 - مدلول كلمة دادة

ونجد مقابلا لكلمة لالة في كلمة «دادة» وهو عند الشاوية يعني «الأب» وفي «الشلحة» : عمي، وتعني كلمة دادة في جرجورة «البكر» وبالتالي المحترم[54]. ويمكن أن تكون هناك أمثلة لصلحاء احتفظوا بتسمية دادة، ويمكن أن نذكر على الأقل دادة أيوب الذي عالج قديما شخصا من وهران من الجذام بواسطة مياه معدنية على بعد ثلاثة

51 - كان في الجزائر قديما مسجد يسمى جامع السيدة هدم في السنوات الأولى من احتلالنا.
Voy : Devoulx, Edifices religieux de l'ancien Algérie. in Rev .afr.6ème année n.66. nov.1876 p.449 seq

52 – يجب علينا التذكير دائما كلمة شيء اسم علم مشهور، وعدة نساء تسمى : ستي. ومن الممكن أن تعتبر ستي كاسم علم أنثوي، ويبدو لنا أن ستي ليست سوى ترخيم لكلمة سيدتي العربية.

53- يسمى مسجد ستي مريم أيضا مسجد بن نيكور، قرب الباب القديم للنهر
CF. Devoulx : Edifices religieux de l'ancien Algérie . in Rev .afr.7ème année n43. nov.1864 p.29.30 seq

54 - René Basset : Notes de texcographie berber 1885, Paris, p 78 et Moulièras Les merveilleuse de G.kad, fasc V.p 466.n.7.
ومونت دادة نانا، وهذه الصيغة مستعملة في تلمسان بمعنى لالة، وينتمي كتاب موليراس المذكور إلى منشورات المدرسة العليا للآداب بالجزائر وه أهم نص موجود عن لقبايل وتعني كلمة دادة في وهران المربية وخاصة إذا كانت سوداء.

كلمترات من هذه المدينة[55]، ومنذ هذه الكرامة أصبح لهذه المياه شهرة كبيرة ليس فقط عند الأهالي ولكنه أيضا عند الإسبان أثناء احتلالهم فقد استغلها الكاردينال كسيمنس والأميرة جان وبنت إيزابيل ومن هنا جاء الاسم الحالي Raius الملكة[56]. وبالنسبة لدادة يوب فإننا نسميه أحيانا سيدي دادة يوب مثل ما رأيناعن لالة إما.[57]

15 - علامات الصالح

وإذا كان للصلحاء كما نرى في المغرب الكبير أسماء تشريفية مختلفة، فإنه ليس لهم في المقابل أي تميز خارجي، فهم يحملون سبحات ولكن هذا بصفتهم أتباع طريقة دينية، وفي الواقع هناك صلحاء من كل الأصناف من الناسك الوسخ «المتقمل» والدرويش الوسخ إلى الصالح الأكبر مثل شريف وزان، فهناك عدة مستويات وأصناف منهم مع اختلاف اللباس.فالصلحاء الأقوياء مثل سيدي بن داود في أبي الجعد الذي تحدثنا عنه قد

55 - وتحكي الألسنة أن هذا التصرف تم إبان بني زيان أو العبدلاويين بتلمسان، لكن ابن خلدون يخبرنا أن يغمرسن مؤسس هذه السلالة، وولده يحملان لقب دادة وأضاف» تاريخ ابن خلدون.

56 - Fey : *Histoire d'Oran*, Oran, 1858 p. 207.

وهو كتاب هام جدا عن الفترة، والمؤلف لم يعرف دادة يوب إلى عبر ترجمة الأهالي التي ظلت سارية إلى اليوم، فنحن أيضا لا نعرف مصدرا مكتوبا في لأمر.

57 - توجد بالجزائر قبة الولي دادة هدمت، وباقي الأولياء نقلوا قرب ضريح سيدي عبد الرحمان الستسجابي، ولا يبدو لنا أي أهمية لذكر هذا الولي الذي يبدو أنه تركي ويكتب اسمه في العقود القديمة دادة، وقد أضيفت كلمة ولي لهذه التسمية للشريف ويشير De la mart, et loc, document, II, p 578 إلى قبيلة أولا دادة، لكن المؤلفين لم يتبعوا أي طريقة صارمة في كتابة دادة إلى درجة لم نعد نعرف هل يتعلق الأمر بنفس دادة.

وضعوا له مثل الملوك مظلة وبالدارجة «ظلّيلة[58]» يحملها خلفه أحد الخدام[59].

وكان الفاطميون قبل أسرة دولة الشرفاء الحاليين[60] قد استعملوا المظلة التي تميزهم عن باقي الملوك حسب ابن حماد[61]، ويتعلق الأمر حسب تروملي الأمر بقطعة قماش بيضاء. مصنوعة في سانت فلور مشجرة في أعلى القبة التي تظهر أين يوجد رأس سيدي مخلوف الذي يوجد ضريحه في المكان نفسه قرب الأغواط. وهناك حكايات مرتبطة بهذا التزيين غير المنتظر.

16 - مدلول لقب الشريف

و من بين الألقاب التي نظرنا في دلالتها والتي أهملناها من بين أخرى لقب: الشريف، والشريف هو كل من جاء من نسل الرسول من جهة فاطمة الزهراء. التي تنطق في العربية الشائعة فاطمة الزُّهرة. والشرفاء الأعيان في المغرب والأكثر شهرة هم

58 - المضلة في الجزائر تشير إلى قبعة من الدوم والتبن يضعها الأهالي فوق رؤوسهم في لصيف، وهناك خمس قبائل مشهورة بصنع هذه القبعات في شمال أفريقيا هي بني أو غليس بوار أقبو (قرب بوجي). من دائرة غور وبقورة بالريف، والتسول بجبالة وازناكَة بسوس

Moulièras, Maroc inconnu, II p509.

وكلمة ظليلة هو الشائع عند العوام.

59 - De Foucauld, Reconnaissance, p.51.

60 - وحسب شربونو فإن الموظف الذي يحمل مظلة السلطان يسمى قائد السوانية ونجد في «نزهة الحادي» تفاصيل عن دخول المظلة إلى المغرب في عهد السعديين علامة على القوة الملكية والطريقة التي تحمل بها في المناسبات الرسمية.

61 - أنظر بهذا الخصوص فقرة هامة عند
Eherbouneau : Documents inédits sur obeid Allah, fondateur de la dynastie Fatimite, extraits de la chronique d'ibn hammad, in Rev. Afr. XII° an. N°72 nov 1868 p.471 - 472.

«حفدة» إدريس المسمون الإدريسيون[62] نسبة إلى إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن بن الحسن السبط أي سبط النبي من جهة بنته فاطمة.[63] ودار وزان مرتبطة رأسا بشجرة إدريس.

أما الشرفاء، الحاليون (العلويون) فيقولون إنهم منحدرون أيضا من الحسن السبط بواسطة محمد النفس الزكية ابن عبد الله الكامل السالف. وقد جاء أحد أسلافهم وهو الحسن بن القاسم قديما من ينبع مدينة بالحجاز كان فيها العلويين كثرا، وهذا الحسن هو الجد المشترك لمحمد القائم بأمر الله مؤسس «دولة» السعديين ومولاي محمد بن الشريف بن علي (وعلي هذا هو المدفون بتافيلالت) مؤسس الدولة العلوية الحاكمة حاليا بالمغرب[64] أو الفيلاليين.

ونجد إلى جانب هذا الشرف أيضا آخرين من نسل أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب يتعامل معهم بالطريقة نفسها، فجد أولاد

---

62 - هم الأكثر احتراما في المغرب حسب:

Cf de la la Mart. et Lac. documents I p361-367 Moulièras : *Maroc inconnu*. II p 462 contra voy. Erckman. Le Maroc moderne. Paris 1885. p. 83.

63 - الشرف الحسيني أكثر اعتبارا من الشرف الحسني، ومن المفيد أن نذكر أنه ومع كامل الأسف قد خلط المؤلفون الذين كتبوا عن المغرب بين الحسن والحسين، وهكذا نجد بوميي في ترجمته للقرطاس قد جعل إدريس من أبناء الحسن، وقد وقع رين في الخطأ نفسه، وديبون وكوبولاني عندما يتعلق الأمر بأحد الابنين يكتبون حساين (127) لدرجة لا نعرف أيهما المعني فنقرأ «عبد الله الكامل بن محمد بن حسين» في حين يجب أن نقرأ «حسن»، علما أن صاحب «القرطاس» قد كتب حسن فيما يتعلق بكل سبب ادريس والباقي البكري (268) وابن خلدون 559/2 يكتبون حسن.

64 - انظر : الزياني في : الترجمانة، والوفراني في : نزهة الحادي : وهذا الكتاب الأخير هام جدا في معرفة أصول الشرفاء. ويشير إلى أن الشرفاء الحاليين يسمون «العلويون» لأنهم من نسل مولاي علي المذكور، ومن الممكن أن يكون هذا التفسير هو الشائع في المغرب، لكننا نجد في الكتب وعند «المثقفين» أن اسم علوي يستعمل أيضا للسعديين علما أن السعديين يعدون فرعا من نسب مولاي علي. فعلوي تعني حفيد علي بن أبي طالب.

سيدي الشيخ ينحدرون من الخليفة أبي بكر[65]، وسي بن داود جد الصلحاء بتادلة ينحدر من عمر.[66]

65 - *De la Mart et lac*, document, II. p758.
66 - De Foucauld : *Reconnaissance*. p. 53.

الفصل الرابع

مدلول كلمة شريف

1 - شرفاء القرن السادس عشر

وبطبيعة الحال فإن الصلحاء العديدين الذين أسهموا في حركة النهضة الدينية خلال القرن السادس عشر الذي تحدثنا عنه يضعون لحد الآن شجرات نسب، وهذا أمر لم ينته بين «المثقفين» في شمال إفريقيا إلى حد الآن. فبمجرد أن يحفظ أحد لقبايليين بعض آيات القرآن إلا ويقتنع أنه من شرفاء بنت الرسول، ولا أحس أنني أزعجت تلاميذتي بمدرستي في تلمسان إلا عندما أتحدث عن البرابر الأفريقيين وأضيف أن كل من أتكلم إليهم برابرة، وقد كنت أقول لأكثرهم تقدما في الدراسة يسمى عبد العزيز الزناكَي أنه ليس شريفا، وأن اسمه الإثني الزناكَي ينفي كونه شريفا.

2 - قبائل الصلحاء وساداتها

وللرجوع للذين يزعمون أنهم شرفاء والذين انتشروا في المغرب منذ حوالي ثلاثة قرون نقول إن هؤلاء الدعاة قد نقلوا كل شيء إلى القبيلة التي وصلوا إليها. وهذا من الأسباب التي تعطي طابعا خاصا لتاريخ شمال إفريقيا بعد القرن السادس عشر مخالفا للعصر الوسيط، ليس فقط لأن السلطة السياسية قد اتخذت تشكلا مختلفا في المغرب لكن كل الأحداث الأخرى طبعت بالصلاح حيث

اجتمعت المجموعات الكبرى تحت تأثير العامل الديني، وغيرت أغلب القبائل أسماءها حيث ارتبطت بصالح ما، وادعت الانتساب إليه وهكذا ظهرت قبائل الشرفاء[1]، ونعرفهم من خلال تسميتهم: أولاد سيدي فلان، ونذكر منهم على سبيل المثال: أولاد سيدي تليل (شمال كَفصة)، وأولاد سيدي إبراهيم بوبكر (مجانة)، وأولاد سيدي احمد الكبير (بليدة) وأولاد سيدي علي بوشعيب (الرمشي)، وأولاد سيدي الشيخ (بالجنوب الوهراني)، وأولاد سيدي امحمد[2] بن احمد (الظهرة المغربية)،وأولاد سيدي الهواري (واد زيز)، وأولاد سيدي عامر (واد درعة).

ولا يتميز الصلحاء عند الطوارق بتسمية خاصة[3]، وقد وقفنا من قبل عن الصعوبات التي واجهها الصلاح عند هذه القبائل البربرية المترحلة أو الرحل. وتسمية أولاد سيدي فلان تكون أحيانا خاصة أو مقتصرة على فخذة من القبيلة أو من الدوار أو القرية الواحدة. وفي هذه الحالة تأخذ المجموعة الصلاحية فقط اسم الشرفاء. في حين تحمل بعض المجموعات القبلية هذا الاسم مثل شرفاء ضواحي عين الصفرة (بالجنوب الوهراني)، وشرفاء الجماعة المختلطة لبني

---

1 - يمكن الرجوع في هذا الموضوع، لكن مع بعض الاحتياطات إلى:
Arnaud : *Les tribus chorfas in Rev.* afr XVII année, n° 99, mai – juin . p.288 seq. et Féraud, Les chorfas_du Maroc in Rev .afr XXI année, n° 124 juillet – aout 1877. p.299 seq. et n° 125 sep. oct .1877, p. 380 seq.

2 - لا نعرف كيف يرخم محمد إلى امحمد الذي تكتبه الإدارة الجزائرية، ويستغرب النحاة من هذه الصيغة فيكتبون مُحمد وفي العقود يقولون محمد بالفتح، وهذا ليس مكان الانتقاد، ولكن يجب أن نلاحظ أن اسم امحمد مشهور كثيرا في الجزائر، ففي القبايل بالجزائر يسمى البكر مَحمد والطريد (أي من يأتي بعد البكر) امحمد من أجل التمييز بينهما.

3- *De Porter, Extrême sud.* p. 351, Duveyrier, Touareges du Nord p 319.

منصور، والشرفاء قرب سانت دوني دي سيك بالجزائر...إلخ.[4] والقبائل التي لم تستطع أن تتصل بشريف معروف اتخذت لها شريفا ما ذا أخلاق حميدة حسب عموم الناس. وهكذا عمدوا أحيانا إلى الارتباط بصلحاء يشابهونهم في شيء ما وهكذا نجد المخاليف في الأغواط مرتبطين بسيدي مخلوف أحد أولياء القرن السادس عشر، وبني مناصر بسيدي منصور والداودية بسيدي بن داود[5]، والقبائل التي لم تتخذ هذا المسار أصبحت استثناء وكلما سألتهم عن جدهم يجيبونك بطرق متفاوتة أنه جاء من الساقية الحمراء.[6]

ويبدو أن حركة الصلاح الباقية قد امتدت إلى زماننا هذا حيث يمكن أن نميز في عديد من الحالات بين أولياء ينتمون إلى هذه الحركة في هذه الفترة وبين آخرين أكثر قدما لكنهم مهملو الذكر، وهكذا نجد عند أولاد ورياش: سيدي الطاهر وهو صالح حديث العهد نسبيا (القرن السابع عشر) قد خلف جد القبيلة وقبته كبيرة ومبيضة دليلا على أنه الآن أكثر حظوة من سيدي ورياش الذي ما يزال ضريحه موجودا، وأتباعه لهم كل النفوذ، في حين أن أتباع سيدي ورياش قد فقدوا كل نفوذهم السابق.[7]

---

4 - أنظر أمثلة أخرى عن أسر الصلاح الكبيرة في
De la Mart et lac, document, II, 282

وتضاف هذه الأمثلة لما أثبتناه أعلاه وبخصوص شرفاء بني زروال الذين تحدثنا عنهم سابقا أنظر« نزهة الحادي».

5 - R.Basset, Notes de lexicographie berbère, II ser, Paris 1885, p.5, n.11

6 - ورغم ذلك لا يجب أن نعتقد أن كل الصلحاء قد أتوا من الغرب، بل إن عددا منهم -حسب الرواية- جاء من المشرق، ولكنهم يعتبرون أحيانا أنهم لا ينتمون لحركة الصلاح في القرن XVI وأنهم يبدون سابقين عن هذا التاريخ.

7 - كان له أتباع إلى حدود سنة 1851.
Mac.Carthy, Notice historique sur les ouled ouriéche, ..Rev, de l'or, de l'alg, et des col, Xx.

وننقل عن Play fair, Bibliographes of algeria لأنه لا نتوفر إلا على ملخص من عمل ماكارتي الذي أنجزه.

3 - انتقادات الأنساب الشريفة

وأخيرا فإن القبائل التي ليس لها ما يميزها خارجيا، ليس لها أن تدعي شرفا اللهم أن دم الرسول يمشي في عروقها. وعندما نعترض على أنه كيف يمكن أن تكون قبيلة بربرية العادات واللغة من قريش يجيبونك بأن جدهم كان من الأعيان، ولكن لما اختلط به البرابرة أخذ طباعهم وعاداتهم .فقبائل آيت عطا إحدى أقوى القبائل البربرية بالمغرب متشبثون كثيرا بأنهم من أصل قرشي[8].

ويسمى آيت سغروشن في الجنوب أولاد مولاي علي بن عامر لأنهم يدعون أنهم من آل محمد عبر هذا الشريف[9]. وهم ليسوا رغم ذلك سوى فخذة من القبيلة الكبيرة لآيت سغروشن إحدى أغنى القبائل البربرية الموجودة في بلاد البربر في قلب جبال الأطلس بالمغرب[10].

وهذا ما يدفع إلى الاعتقاد أن قريش هاجرت منذ القدم إلى إفريقيا حسب هذه الأنساب، ففي كل مرة عندما نعمق البحث فيها عن أصل صالح ما أو نسبه أو كراماته إلا ونجد انتماءه المزيف[11]. وقد

Canal : *Monographie de l'annondissement* .de Tlemcen in Bule. Soc. géog. oran XIII année G. X Fasc Xlix janv-mars 1890. p.64- 66.

ويظهر من عمله أنه يكثر من المعلومات دون ذكر مصادر.

8 - Marris : *Tafilelt*, p .142145-143-.

9 - De Foucault : *Reconnaissance*, p.382.

وبخصوص ايت سغروشن الذين يكتبون أيت تسروشن والذين نقلناهم عن موليراس
أنظر: De la mart. et lac. document. II p.380-381.

10 - وغالبا ما تدعم هذه الإدعاءات بأحاديث مشابهة لما رأيناه بخصوص فاس، أنظر نص الحديث في «نزهة الحادي»..؟

11 - أنظر بهذا الخصوص كتب الأنساب الخاطئة عن صلحاء غريس الذين سبقت الإشارة إليهم

Guin de la suppression du manuscrit Anovas et Berdjs in Rev. afr. XXX I année n°181, janvier. 1872,p. 92-93

ويعد كين هذا أن أحسن المستعربين، وبإمكانه إن أراد إخراج أهم، الكتب عن مجتمع الأهالي.

قدم هانوتو ولو تورنو في كتابهما القيم نتائج بعض هذه الأبحاث عن الشرفاء العديدين والمكونين بشكل غريب في إطار فئات في القبايل الكبرى: حيث أشارا إلى أن عددا من الشرفاء منحدرون من أحد الدراويش العرب جاء إلى البلاد منذ حوالي قرن، وآخرين من تركي وآخرين من زنجي، وآخرين كانوا فقط من قبايليين من البلد أصبحوا صلحاء ويدعون في الوقت نفسه أنهم شرفاء[12] والنتيجة ستكون نفسها إذا فحصنا عن قرب كل كتب الأنساب، وحتى ما تعلق منها بأشهر الأولياء لا تسلم من انتقاد.

4 - سيدي عبد السلام بن مشيش

فسيدي عبد السلام بن مشيش[13]، أكثر الأولياء احتراما في شمال المغرب، له جدود يحملون أسماء قريبة شيئا ما من النبل، وها هو نسبه كما يثبته صاحب كتاب «الاستقصا» فهو : «عبد السلام بن مشيش بن أبي بكر بن علي بن حمرة بن عيسى بن سلام بن مزوار بن حيدرة، واسمه الحقيقي علي بن محمد بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب». ويلاحظ أن هناك اسمين لافتين في هذا النسب، وهما اسمان بربريان : مشيش الذي يعني القط ،و مزوار التي تعني القديم. ثم إن قبر جد سيدي عبد السلام ما زال لحد الآن قرب عين حديد في بني عروس حيث يوجد قبر ولي كبير يسمى هناك سوى سيدي بوكير[14].

12 - Hanoteau et letourneux. kabyles. II p.9293-.

13 - Moulièras : *Maroc inconnu*. II p159- 171. cf Rin Confréries ,p . 218 -219.

وقد أخطأ هذا الكاتب عندما شدد اللام في عبد السلام، وهذا ما وقع فيه
Delphin in Bull. soc. géog. Et arch . oran . avril- juin1899,p.193; Rin. p. 193 De la Mart. et Lac. Documents . I. 378- 380.

14 -Mouliéras. loc cit

وكلمة باكير شائعة عن لمزابيين المعاصرين، ويوجد أيضا في الكتابات الرسمية.

ففيما يتعلق بمشيش، لا يوجد شك في أصله البربري، أما فيما يتعلق بمزوار فهذه كلمة معروفة في العربية عندنا، لكنها تسربت إلى الكلام المغربي بمعنى عام للزعيم إضافة إلى عدة دلالات خاصة[15]. وقد نقبل تجاوزا أنه لقب بربري لأحد حفدة إدريس وأن هذا اللقب شاع بين الناس ولكن لا نتساءل كيف أثبته كتاب الأنساب في «شجراتهم»، وهذا أمر لافت بوجوده في سلسلة النسب.

أما فيما يتعلق ببوكير، فهي كلمة عربية عامية اللهم إن كانت تحريفا بربريا لأبي بكر، ويجب الاعتراف في بعض مراحل هذه التفاسير المختلفة بما يلي : إما أن يكون حفدة إدريس قد تبربروا إلى درجة أنه أصبحت لهم ألقاب، أو أن كتب الأنساب غير ثقة. ولسنا متأكدين من شيء حتى نحسم في الأمر، فنذكر فقط بأن سيدي عبد السلام بن مشيش هو أحد أجداد شرفاء وزان ذوي الحظوة الفائقة عند السلطان الحاكم.

والملاحظ أن كلمة صالح ليست مرادفة تماما لكلمة شريف، فهناك عدة صلحاء بدون شجرة نسب فهم هؤلاء الذين يقدرهم الناس أقل مثل حفدة الصالح سيدي علال الحاج البقالي[16]، فهو من العوام لكنه أكثر احتراما ألف مرة من حفدة إدريس. وهذه قد تكون حالة من جملة حالات مشابهة (مع بعض التحفظ) لعدة صلحاء زناتة توات[17].

---

15 - Dozy, in loc

ومن معانيها زعيم الدوار، ويسمى في بعض جهات الجزائر (بالقبايل الصغرى) : كَركَور

16 - Moulièras, op laud, II, p470.753

17 - De la Mart, et lac, Document, IV, 335,336 -341, 354, 356 , 373, 375, 387

وبخصوص الصلحاء البرابر أنظر:

Le chantelier inslah, in bull, corr of 1886, V-VI, 940

5 - صلحاء مجهولو الاسم

وهكذا تبدو عدة قبور بجوار أضرحة لا نعرف اسمها قد تكون أكثر أهمية بالنسبة للباحث في موضوع «الأولياء». يوجد بجوار من نكاد نعرف أسماءهم، ممن لا نعرف عنهم أي شيء، فلا نتحدث هنا سوى عن هذه المزارات التي توجد في كل مكان والمكونة فقط من حوويطة صغيرة بالحجر دون طين، ويتوسطها قبر ولي مجهول الاسم أحيانا.، وقد تكون أماكن عبادة مازالت قائمة منذ الأزمنة البعيدة، وإذا سألتهم من الدفين في هذا المكان؟ يجيبونك أنه مرابط دون أي تفسير آخر، لكننا نتحدث هنا عن قبور ظاهرة سواء كانت بناية قصيرة مفتوحة إلى السماء، أو قبة أو حوويطة مبنية بأحجار من قارعة الطريق أو قبة مبيضة جيدا، فهناك كل الأشكال [18].

والقبور المتحدث عنها هي بنايات مهملة عموما وأحيانا متلاشية، ونجد عند خروجنا من تلمسان قرب طريق سيدي بومدين يمينا صالحا (ونحن هنا نستعمل الكلمة الشائعة في الجزائر الدلالة على بناية فوق قبر) عبارة من أطلال أصبحت من ضمن ملكيات أوربية. والنساء خاصة اللواتي يزرن سيدي بومدين[19] لا يمكنهن أن لا يقفن ولو لحظة في هذه المحطة حتى لا تعتبر هذه الزيارة ناقصة، علما أنه لم نستطع قط ذكر اسم هذا الصالح الذي له هذه الحظوة والذي يبدو أن اسمه قد نسي تقريبا. وهذا حال بقية قبور أولياء ليس فقط في تلمسان ولكن في كل باقي إفريقيا الشمالية، والذين لا يعرفون إلا باسم لْمرابط[20]، وقد

18 - ويمكن مشاهدة كل هذه الأشكال في مقبرة سيدي بومدين بتلمسان

19 - Bargés, vie du célèbre marabout Sidi Abou –Mediène Paris 1884

وهو كتاب قيم مثل الأعمال الأخرى لبار كيس عن تلمسان تاريخها.

20 - Goldziher, op. Laud

حيث أشار الباحث المجري في وصفه الدقيق الذي تركه لنا عن علي باشا مبارك بقوله «فيها ضريح لبعض الصلحاء»

درس كَولذ زهير في بحثه الأخير عن زيارة الأولياء بمصر بعناية الأولياء المجهولي الاسم، أي من نسيت أسماؤهم، وحتى إذا تعلق الأمر بمجال آخر مختلف ليس لنا ما نضيف أمام هذه الإشارة العلمية.

ويسمى في الجزائر الصلحاء المجهولو النسب الموجودون بجوار الطريق أو قرب ضريح «سيدي صاحب الطريق»، وكان عددهم كثيرا في القديم بمدينة الجزائر ويشار إليهم بهذا الاسم والعام في العقود الرسمية القديمة.

وكان هناك أحد سيدي صاحب الطريق في شارع La Grue قبل الاحتلال الفرنسي، وكان آخر في الموقع الحالي لشارع القيادة العامة هدم سنة 1830، وثالث في شارع النصر لم يهدم إلا في تاريخ قريب جدا[21]. لكن الاسم الأكثر انتشارا في إفريقيا الشمالية للدلالة على الولي المجهول الاسم هي: سيدي المخفي، وقد سألنا مرة سكان تلمسان عن ولي مدفون قرب سيدي الحاج معمر[22]، فلم يستطيعوا معرفة اسمه إلى أن تدخل أحدهم ليقول لنا إنه سيدي المخفي وسجلنا اسمه في مذكرتنا بعناية. وقد سبق لنا أن شاهدنا أحيانا قبورا لأولياء يسمون سيدي المخفي لكننا لم نولها عناية كبيرة ،لكننا فوجئنا بعد ذلك عند ما قرأنا في كتاب تروملي أن هذه التسمية تعني وليا مجهولا[23] وقد وقع بدوره في الخطأ نفسه، ولكن لما رجعنا إلى الأهالي وسألنا في الموضوع قالوا : يسمى بهذا الاسم الشخص الذي لا نعرف عنه أي معلومات[24]. وأضرحة سيدي المخفي المنتشرة في كل إفريقيا الشمالية

---

21 - Devoulx. edif, rel. De l'anc. Alg. in Rev. Afr . X I I I°année. n°75 mai 1869 p.169 afr XIV année, mars 1870, p.284

22 - شخصية تبدو لنا أيضا غير معروفة، وقبره يوجد بضيعة أحد الإسبان بين مسجد سيدي لحسن ومكان يسمى التعارين

23 - Trumelet , Saint de l`islam , p159 -16

24 - وقد أخطأ أكثر من مؤلف في التسمية (سيدي لغريب) مثل :
La Mart. et lac. Documents IV p.308.

فهي دون شك أضرحة صلحاء نسي اسمهم، ولكن ألا تكون قبورا أو أضرحة قديمة جدا؟ فعلى الباحثين الاهتمام بهذه النقطة.

ويمكن مقارنة هؤلاء الأولياء ب Sancti ignoti في المسيحية[25] ولكن لا يمكن مقارنتهم كما فعل تروملي Deignoti في الديانة الرومانية، فسواء كان الصلحاء مسلمين اختلفت أسماؤهم، أو بقايا معتقدات قديمة فإنه ليست لهم أي عناصر تشابه مع المعتقدات الرومانية التي كانت تتعامل معهم باعتبارهم حماة لهذا الطرف الدنيوي أو ذاك.

ونجد أحيانا الولي الذي اختفى اسمه يأخذ تسميته من المكان الذي يوجد به[26]. ويوجد بالمقبرة القديمة سيدي بومدين بتلمسان قبر ولي يزار قدم لنا باسم سيدي بوزبوحة، نسبة إلى شجرة الزيتون غير المثمرة التي تعلق بها عقد مناديل من الثوب. ويوجد قبر آخر بين هذا المكان وتلمسان في ضيعة يسمى سيدي بوزيتونة، نسبة إلى شجرة الزيتون المجاورة له. والواقع أنه يوجد مثال ثالث سيوضح لنا التحول بين الولي الذي نعرف اسمه والذي لا يعرف إلا باسم شجرة، إنه سيدي بوسعيد شريف الحسانيين، الذي كان يسمى حسب «البستان» وهو كتاب في تراجم أولياء تلمسان، وتسميته ببوزيتونة لأنه كانت تنبت زيتونه بجوار قبره قرب الباب الشمالي الحالي، وكتاب البستان ينتمي زمانا إلى بداية القرن السابع عشر، في حين أن القبر منذ 1883 والزيتونة باقية والولي كان معروفا[27]، ولكن من المحتمل جدا أنه لن يبقى من اسمه بعد قرن سوى اسم سيدي بوزيتونة.

---

25 - Cf. Goldziher, Muh st, p 353

26 - Cf. Goldziher.op land. I, 353 seq et Aus dem heiligenkultus in Egyptien (الشيخ ضيف الله)

27 - Delpech. loc

وأتأسف لعدم استطاعتي زيارة الضريح عندما كنت بتلمسان

6 - صلحاء مدعو النسب العربي

ويجب التذكير من أجل الرجوع إلى كتب الأنساب التي ابتعدنا عنها شيئا ما، أن الذين صنعوا عدة شخصيات لم يكن هدفهم إعطاءهم ولاية «أصيلة» فقط، ولكن من أجل إقحامهم في شجرة النسب العربي، والشعب البربري لم يخرج عن هذا الإحساس الكوني. أي الإحسان بالتميز والنصر من أجل الرقي إلى مرتبة الفئة الحاكمة والمهيمنة، ولهذا السبب كان الصلحاء البرابرة يقولون ومنذ القديم أن أصلهم عربي، فهم لا يقولون أنهم ينحدرون من قبيلة النبي ولكن من أقدم من ذلك أي من الأعيان اليمنيين ثم انتسب بعد ذلك الدول التي حكمت المغرب إلى قريش، وكتب بنو زيان من تلمسان وزناتة وثيقة كتبها أبو عبد الله التنيسي، يثبتون فيها أنهم من آل النبي لكننا إذا رجعنا إلى أبن خلدون فإننا نجد أن جدهم يغمرسن لم يكن من الأشراف، ويحكي -حسب هذا المؤرخ- أن أشخاصا يرجعون نسب عائلة يغمرسن بن زيان إلى إدريس وشاع ذلك بين الناس، وإذا كان هذا صحيحا فذلك يقربنا إلى الله، ولكن نصرنا لم يأت إلا بسيوفنا[28].

7 - صلحاء أتراك ورومان

فصحيح أنه عندما يكونون من قبيلة عبد الواد [29]، وعندما يسمون يغمرسن[30]، وعندما يتكلمون باللسان البربري يصعب القول بأنهم

---

28 - وهذا ما يذكرنا بجواب الخليفة الفاطمي المعز.

29 - يفسر المؤرخون العرب هذا الاسم ب «عاشق الضفة، والزاهد الناسك في الضفة»
Borges, op Land, p XXXIII,

ويرى سلان أن هناك تشبها مع « عبد الواحد» خادم إلا لاه الأحد»
De Slave, Berbères, III, 326

وكل هذه الأشياء تبقى افتراضية.

30 - أنظر بخصوص الأسماء البربرية:
R.Basset : Sanctuaires du dj, Nefousa, in jour asiat, 9 ser, t.XIV, n° 1. juillet –

ينحدرون من أصل عربي، لكن ما دمنا نرى أن هذا يحدث في القرن الهجري الثامن وأننا بعيدون عن القرن السادس يكون الشرف من أعلى المراتب. ولعل إحساسا مثل هذا هو ما دفع دائما ومازال يدفع المورو إلى أن يقولوا بأنهم أتراك، ونحن نعلم سخرية المثل القائل: «فاق اللاحقون السابقين». ونجد كذلك في مدن مثل : الجزائر، وديلي، وكولو التي كانت بها تكنات تركية أشخاص عرفتهم يقولون بأنهم أتراك. والآن لما أصبح الاحتلال فرنسيا، وأصبح الأمر بين يدي الروميين فإننا لا نستبعد أن نجد أشخاصا يقولون أن أصلهم مسيحي. وهكذا يدعي بوربون والدجيلي أنهم منحدرون من ابن زنى من الدوق بوفور مع بعض النساء من الأهالي أثناء حملة سنة 1664م.

وكثيرة هي القبائل التي تدعي أنها من أصل روماني أو مسيحي وهكذا نجد : آيت أوزرمان من لقبايل الكبرى يدعون أنهم منحدرون من الرومان[31]، ويسمى سكان الأوراس رومانية أي منحدرين من روماني

---

avril 1899, p109.11.

وبخصوص يغمر سن تنقل من ص 111 «جرت القاعدة أن هذا الاسم مكون من: ايغمور واسن وهذا العنصر الأخير هو تأخير لاحق مذكر جمع مضاف إلى الاسم، لكن الدارجة البربرية الحالية نجد عندها أن صيغة اسن لا تضاف إلى الأفعال ولا أعرف في باقي البربرية اسم يغمور الدال على الإمام، ولكن لا يمكن أن ننكر أن الأسماء التي ذكرناها أعلاه مكونة من شقي ما دمنا نجد هما معزولين يغمور بن عبد الملك

ويضيف باسي: «يشير التجاني في رحلته إلى وجود نزل غمراسن قرب كابس من نفس الجذر اللغوي السابق.

Rousseau, Voyage de scheikh ettidjani,Paris 1853, in 8, p.153

ويمكن أن نضيف إلى ما سبق أن بني كيل (لظهرة المغربية) ينقسمون إلى فخذتين هما: بني كَوامن والغوما سن أنظر:

365-De la Mart, et lac Document, II,356

وتنطق رسميا عند الأهالي غمراس بدون إيا، وهكذا ينكلق لحد الان في تلمسان ويبدو أنه كان هكذا منذ القديم إذا أخذنا بعين الاعتبار الصيغة الاسبانية التي مر بها كَو مارازان أنظر Brosselard, Mém… sur les tomb, des beni Ziyane

31 - Hanoteau et letourneux, kabylie, II, P. 93.

يسمى بورك[32]، ويدعى أولاد عنتر بأن أصلهم من الروم اعتنقوا الإسلام[33] وأن جد أولاد الريدي (أومال) مسيحي[34]. وأن أولاد عطية (كولو) يريدون أن يكونوا منحدرين من المسيحيين. وأخيرا هناك قبائل تدعي أنهم من أقارب الفرنسيين مثل آيت فراوسن من القبايل[35]، ومثل بني فراسن وهم فخذة من التسول بالمغرب[36] (جبالة).

8 - صلحاء تنبأوا بالاحتلال الفرنسي

يبدو أن هذه هي المناسبة للتذكير- وهذا يدخل أيضا في إطار أبحاثنا الدينية- بأن عددا من الصلحاء تنبأ للأهالي بالاحتلال الفرنسي للجزائر.

وهكذا كان يروج في الجزائر أن جنودا يرتدون لباسا أحمر وباد نجانا (شاشية حمراء) فوق الرأس سيأتون لاحتلال البلاد من هم، ونعرف من هذا السروال الأحمر لجنودها المشاة وشرابة الشاكوس.[37]

وقد تنبأ أحد صلحاء البليدة يدعى سيدي محمد بن بورقعة قبل سنوات من الاحتلال باستبدال المستعمر من الأتراك إلى المسيحيين. وقد تنبأ أيضا سيدي الحاج عيسى من الأغواط بالاحتلال الفرنسي

32 - Masque Ray. Documents historiques recueillis dans l'aures, la rev. afr, XXI . n° 122mars - avril 1877. p.97-101.

33 - Féraud. les ben Djelleb. in Rev. of XXX ans 1886 p :369.

34 - Guin, Notes historiques sur les Abouara, in rev.fr XIX ans, n° 97, juin-février 1873. p.33.وهو كتاب هام

35 - وادعاؤهم معروف بالجزائر.

36 - Mouliéras. Maroc inconn, II, 439.

37- Féraud, Destruction des établissements Français de la colle in rev.fr X I I année, n° 102. nov- dec 1873, p.453

وهو كتاب خير هام جدا عن المغرب الكبير، لكن يجب أن نعرف كيف ألفت ففيرو مترجم.. يجمع معلوماته دون ذكر مصادره بالإضافة إلى الرواية الشفوية والكتابات خاصة التقارير الإدارية. ويمكننا الرجوع إلى كتابه مع بعض الاحتياط بل لابد من ذلك خاصة أن مجموعة من المعلومات التي وردت عنده كانت عند ضباطنا.

وهو دفين القبة التي أطلقنا منها سنة 1852م مدافعنا التي فتحت لنا المدينة.[38] كما تنبأ أيضا سيدي احمد بن يوسف بالاحتلال الفرنسي كما تنبأ بذلك مولاي الطيب شيخ الطريقة الطيبية[39]. وتنبأ جده مولاي عبد السلام بن مشيش مثل سيدي الهواري باحتلال الإسبان لوهران[40]،كما تنبأ أيضا بدخولهم إلى تطوان عدة قرون من قبل[41]، بل قال «إن الإفرنجة ستسكن وزان والقصر الكبير، وستشيد مدينة على أرض لخلوط وستجلب المياه من جبل الشاون[42]»، وهناك عادة عند بني بوزرعة تقول بأن غمارة سيحتلها يوما المسيحيون باستثناء أرض فخذتهم ومدينة الشاون. لكن يشاع بين سكان الشاون أن المسيحيين سيغادرون هذه المدينة.[43]

كما نجد سيدي الهواري الذي أشرنا إليه سابقا الذي أهانه الوهرانيون قد دعا عليهم باحتلال الإسبان، كذلك الأمر بالنسبة لسيدي بلعباس السبتي بمدينته الأصلية سبتة التي أهانه فيها أهلها[44]

---

38 - Trumelet, Saints de l'islam, p.367

«حيث وجد أيضا في ميتيجا يخفر بين حقوله حفرا غير متوازية، ويجيب من يسأله عن هذا العمل غير المنتظم : أخط أيها المسلمون الطرق التي ستمر منها مدافع النصارى. ومما يدل على صحة تنبأ بن بورقعة –حسب رواية الأهالي- أن المدافع مرت من هذه الطرق التي رسمها هذا الصالح.

39 - R. Basset, dict sat de sidi Mohamed ben Youssef p . 22.

ثم إن هذا الشيخ هو من قال: «شلف يا خير الأوطان، نخلى بعد العمارة وتصير دكان ويعمروك الفرانصيص النصارى» والذي قال «متيجا بقرة سمينة وشحمها لاثنين أولها للترك وأخرها للنصارى»

40 - Rinn, Marabouts et khouans..., p373.

41 - Fey : *Histoire d'oran*, R, Basset, M, land, p41, Fastes de la ville d'oran, la bulle sol, géog, ...XV ann, t, XII, Fasc, L III, janvier -mars 1892. p 64.

حيث نجد إحالات على حدة مراجع .

42 - Moulièras, Maroc inconnu, II p.102.

43 - Moulièras, op land, II p.127.

44 - أشار موليراس: Maroc inconnu وإركام Maroc Moderne p 101 إلى أن الولي قد تنبأ باحتلال الإسبان لمدينته وباعها ليهودي مقابل خبزة من أجل أن يقال بأنه لم يختطفه المسلمون لكن لا يشير إلى مصدر الأسطورة، وقد سبق أن قلنا بأنه يجب الاحتياط من معلومات هذين الكتابين.

فبحث عن ملجأ في المغرب «مراكش» حيث أصبح حاميه الرئيس ومر دخوله إلى المدينة بدون مشاكل تذكر. وإذا رجعنا إلى الأسطورة أو الرواية الشفوية نجد أن الأولياء الآخرين قد أحسوا بمنافسة هذا الولي الجديد، وأرسلوا إليه آنية ملأى عن آخرها بالماء وكأنهم يقولون له «إن كنت تستطيع أن تضيف شيئا للإناء فادخل» ولم ينزعج الولي فأخذ وردة أذبلتها الشمس ووضعها فوق الماء.[45]

9 - صلحاء للمدن الكبرى والقرى

هكذا عاش سيدي بلعباس واسمه الحقيقي هو أبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجي السبتي بالمغرب في القرن الهجري السادس و به توفي ودفن[46] ولم يكف طيلة حياته وبعد مماته على حماية سكان مدينة مراكش والمغرب عموما، و ظهر سيدي بلعباس أثناء المعركة الشهيرة للملوك الثلاثة (4 غشت 1578م) التي سيسميها المؤرخون العرب معركة واد المخازن في حين يسميها المؤرخون البرتغاليون : معركة القصر الكبير التي توفي بها ملكان مغربيان وملك برتغالي[47] في أعين الكل وسط الزحام راكبا فرسا رماديا يشجع المحاربين.

45 - يحكي هذه الأسطورة هاريس في كتابه عن تافيلالت، وإيركمان بشيء من الاختلاف.

46 - انظر بهذا الخصوص: القوي- نفح الطيب (ج4) وكتاب الاستقصا للناصري الذي يشير إلى أنه توفي سنة 601 هـ حيث قال»سنة إحدى وستمائة توفي الشيخ أبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجي المعروف بالسبتي دفين مراكش وذلك يوم الاثنين الثالث من جمادى الأخرة من السنة المذكورة ودفن خارج باب تاغزوت»
173-Stum, Marchen der shluk von Tazerwalt, I vol, Leipzig 1895, p 166
رواية غريبة عن هذه الشخصية، وأنظر أيضا إيركمان ص 118 مع التحفظ السابق عن هذا الكتاب.

47 - أنظر:
Histoire….. de l'Afrique Septentrionale III, Leroux, 1891, p.122.
والإحالة على هذه المعركة طويلة جدا، وخصص لها مونتاني صفحات في مؤلفاته.

وسيدي بلعباس ليس وحده هو حامي مدينة مراكش، بل يتقاسم هذه الحماية مع ستة أولياء آخرين ولهذا تسمى عند العموم مدينة سبعة رجال[48]. وهكذا سنجد أن كل الأولياء المحليين الذين نجدهم في الإسلام المغاربي هم سادة حقيقيون للبلاد[49]، يحمون المدينة وضواحيها والضيعة والدشرة البسيطة المدفونين فيها.

فسيدي محمد الحاج بوعراقية هو ولي طنجة[50]، وسيدي يوسف التليدي هو ولي الشاون، وسيدي السعيدي هو ولي تطوان. وعندما صعد يوما الأعداء الدائمون للشاون محاربو لخماس من أجل الهجوم عليها خرج سيدي يوسف من قبره ليحجز السلم الذي يستعملونه لدخول المدينة ،وجعله مثل قشة ورماه بعيدا[51]. وقد أرعب سيدي السعيدي بانفجار قوي جنودا إسبان سنة 1860 م محاولوا تدنيس قبره، وهذه من إحدى الكرامات التي تتكرر في كل إفريقيا الشمالية بشكل متواتر وهذا هو نموذج الولي الموجود مزاره في مرتفعات جبال بني فركان إحدى قبائل الجماعة المختلطة الميلية وغير معروف كثيرا غاب عني اسمه الآن وكذلك شيخ بني فركان نفسه الذي حكى لي أنه في سنة 1804 م، عندما وصل الباي عثمان على رأس جنوده في هذه المناطق الوعرة هلكت، سمع ثلاث طلقات مدفعية من الجبل الذي فيه ضريح هذا الولي أهلكت الجنود، لكن مع الأسف هذه القصة لا تتماشى مع ما حكاه لنا الشيخ، خاصة أن ظروف وفاة الباي عثمان معروفة جدا[52] ونجد في مؤلفات تروملي وغيرها عدة أمثلة لهذه

---

48 - Erckman, *Maroc Moderne*, 108,

49 - أنظر بهذا الخصوص : Goldziher, Muh, stud, II 310.311

50 - Moulièras, *Maroc inconnu*, II p633

51 - Moulièras, ibid 137.

52 - CF: Luciana, les ouled –atia de l'oued zhour in rev.fr X X X I I I année, trim 1899 n° 195, 298 sec

والكتاب هام ومليء بمعطيات هامة عن تاريخ هذه القبيلة وسلوكها ولهجتها إضافة إلى معلومات شفوية، والكاتب من بين أوائل المعربين بالجزائر، ويمكن أن نقف في

الكرامة نفسها. ويتنازع ثلاثة أولياء الجزائر (العاصمة) هم : سيدي بوطاقة وسيدي بوكَدور ولد دادة أن كل واحد منهم هو من أنجا المدينة من أسطول شارل كانت سنة 1541، ومن عاصفة هوجاء[53].

وتحتفظ لنا إحدى الأغاني الشعبية الجزائرية الغريبة[54] بوصف للشاعر يقول فيه بأن الجزائر قصفها أسطول دانماركي سنة 1770، دون أن يحدث أي خسائر، واصفا بأن الأولياء أكثرهم الذين يحمون منذ مدة العاصمة،[55] ولما حاصر أبو فارس السلطان الحفصي مدينة بني زيان رأى في حلمه جميع الأولياء حماتها يطاردون جيوشه، ولما رأى ذلك عدل عن ما قام به[56] والأمثلة على ذلك كثيرة وغير متناهية. فلكل مدينة «مالين البلاد»، أي سادتها يكون من بينهم واحدا مفضلا عن الآخرين، فسيدي بومدين[57] هو مول لبلاد الحقيقي لتلمسان، وكذلك الشأن بالنسبة سيدي عبد الرحمان الثعالبي بالنسبة للجزائر (العاصمة) وسيدي بلعباس للمغرب (مراكش) ومولاي إدريس لفاس، ولا توجد أي قرية أو مشتى أو زريبة أو دشرة ليس لها سيد / صالح. ويرجع تاريخ أغلب هؤلاء السادة كما رأينا إلى القرن السادس عشر، عصر النهضة الدينية في شمال إفريقيا حيث استمرت الحركة وأصبحنا نرى أيضا قرى تغير أسماءها القديمة باسم ولي، فقد كانت تسمى إحدى الضيعات بمثيوة (جبالة) الرطبة، لكن السكان اختاروا

نهاية عمله (ص 309-311) أن هوس الشرف منتشر على ضفاف واد الزهور أكثر من الخارج.

وأنظر أيضا المراجع المتعلقة برحلة الباي عثمان في Mercier, Hist afn, Sept III, 460,n,1

53 - Devoulx, édifices religieux de l'ancien Alger in rev.fr X I I année, n° 66 mars 1866 p .174

54 - Ibid. p .114

55 - Venture de paradis Loc. cit. p.337 -339 (édité par E. Faguan)

56 – مقتطف من البستان.

57 – موالين جمع مولى بالعامية.

لها اسم السيد مولاي بوشتى الولي الشهير لفشتالة، وهذه التسمية محت تماما التسمية القديمة[58]، ويتحكم هذا الولي في كل الحياة الدينية حيث يتوسل به في كل الأشياء، و يفصل عند قبره بين الناس، ويسمى الأطفال باسمه، وكذلك الشأن بالنسبة لأهل تلمسان الذين يسمون أبناءهم كثيرا : بومدين تبركا باسم الولي الشهير دفين «لعباد» الذي هو مول لبلاد.

وحتى اليهود لهم «رب لبلاد» الذي يحميهم.[59] علما أن الديانتين لم يتعايشا مدة طويلة دونما تأثير متبادل. ويسمى سيدي عبد القادر الجيلاني الولي الذائع الصيت في كل قرى إفريقيا الشمالية «طير لمراكَب» بسبب العديد من المعالم المسماة باسمه في الجبال العالية[60] وهذا ما يفسر انتشار ألقاب الجيلالي، وجلول، وقويدر، والبغدادي وكلها تسميات للولي الشهير، وإذا لا حظنا أنه «مقدس» في كل أنحاء العالم الإسلامي وفي المناطق الداخلية في عمق المغرب مرورا بالهند وأفغانستان ومصر[61]، يجعلنا نتشكك فيما أوردناه أعلاه علما أن زيارة الأولياء لها عادة طابع محلي، لكننا إذا صدقنا من جهة أخرى الروايات

---

58 - Moulièras : *Maroc in connu*, II, 392.

59 - Damon : Origine et constitution .....de la communauté israélite de Tlemcen in Rev afr X I V ann,...., juillet 1870 n° 8C p. 381382-

60 - Delphin et Guin : *Notes sur La poésie et la musique arabe dans le maghreb algérien*, Paris 1886

واستنادا إلى شهادة موثوقة فأن الكتاب يثبت معرفة معمقة بالأهالي الجزائريين ولهجاتهم.

61 - Gold ziher, Aus den mohamen, heitigen kult, in egypt . p. p5. b et 6 a dut à...

مع إحالات هامة، وفي الجزائر نفسها نجد أنه كان لسيدي عبد القادر الجيلالي مصلى مرتفع في الموضع الذي تقول فيه الرواية أنه حفر بها بئرا عندما زارا الجزائر، واستمر وجود المصلى والبئر التي كان لها طبعا مفعولا مبارك إلى حدود 1866 في الفترة التي شق فيها الشارع واختفى الضريح أمام حسرة النساك المسلمين.

Devoulx : *édifices religieux de l'ancien Alger*, Rev, afr, XIII pour mars 1869, n° 74, p.133.134, Berbruggan in voy d'el Aiachi : p 32 n° 1.

التي تحكى في كل البلدان، وتخصيص قبة له فإن عبد القادر الجيلاني قد يكون زار كل هذه البلدان وطبع مروره بكرامة بل قد يكون خص المغرب الكبير بمنزلة خاصة، ومن هنا تكون زيارة الصلحاء قد انتقلت من المحلي إلى الوطني. أو الكوني.

وليس سيدي عبد القادر الجيلالي وحده هو من تنسب إليه أسفار لم يقم بها، ففي المغرب الكبير كما في باقي دول الإسلام نجد عدة قبور منسوبة إلى صحابة الرسول الذين لم يروا قط حقا هذه البلدان التي يزعم أنهم مدفونون بها. وقد أعطى كَولد زهير أمثلة على ذلك بمصر[62] وكذلك الأمر بالنسبة لهارتمان[63] وأورد شراينر من جهته المجهودات التي بذلها الفقهاء من أجل تفنيد هذه الآراء الخاطئة[64]، كما نجد في رحلة مؤلف مغربي إشارة إلى ضريح ينسب لأحد الصحابة بكَابس[65]، وأشار كَولد زهير إلى نبي يسمى «خالد» في رحلة العياشي مدفونا قرب بسكرة[66].

ومن الأمثلة الأكثر غرابة التي وجدنا ها في الجزائر لمن يقال إنهم صحابة الرسول هو مثال أحد الأولياء الأكثر حظوة عند تلمسان يقال إنه وهب بن منبه[67]، ويجب الإقرار أننا لم نكن ننتظر قط الكيفية التي

62 - Goldziher, Au den mohaum. Heiligenkult, in Egypt, p.3a.,3b,6b .dut àp.

63 - Hartman, Aus dem. Religions leb, der, lib wudte, loc.cit, p.263- 273.

64 - Schreines, Beitr, Z. Gesh, d. theol.Beweg. in islam 2 D.M.G L III Bd, 1M, 1899, p 55, et 103 du t.a.p

65 - رحلةالمولى أحمد على هامش رحلة العياشي ص. 272.

66 - رحلة العياشي :

ann n°122 : Masque ray, Documents historiques recueillis dans l'aures occidentals. in rev afr X X X : mars – avril 1877, p. 116

حيث تثبت الأسطورة أن سيدي خالد هذا هو من جعل سكان الأوراس يدخلون الإسلام.

67 – ينطق في تلمسان سيدي لوهان بن منبه ونتمنى أن نحصل على معلومات عن هذه الشخصية.

يقدس بها وسط المغرب الكبير هذا اليهودي من أصل فارسي الذي أسلم والذي ازداد وتوفي بالسجن حسب كل الشهادات التاريخية المتبقاة. وهناك معتقدات مشابهة وكاذبة جعلت التلمسانيين الذين تحمل مدينتهم اسم «الجدار» إلى الاعتقاد أن تلمسان هي البلد الذي تحدث عنه القرآن في سورة الكهف: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾[68]

لما وصل موسى مع المسافر المجهول الذي ليس سوى الخضر أو إيليا إلى مدينة بها جدار خرب، وبنى هذا النبي هذا الجدار دون أن يطلب أي أجر. ويعتقد أهالي زرقط (بالريف المغربي) أن سفينة نوح قد استوت على أحد جبالهم الذي يسمونه تزغين والذي سماه العرب جبل الكودي، وهذا يذكرنا بالقرآن في سورة الكهف عندما قال (واستوت على الجودي)[69].

ويوجد في جهة غمارة جرف صخري عمودي فوق قبة أحد الأولياء يسمى سيدي يحي الورداني يبين فجوة شبيهة بغرفة فسيحة يسميه الأهالي: «زاوية بنت سيدنا نوح» ومتيقنون أنها مدفونة هنا[70]. وهناك أحد الصلحاء الأكثر احتراما عند بني زناسن يوجد قبره بوجدة يسمى سيدي يحي بن يونس، والرواية تجعل منه من أتباع المسيح وتقارنه تشابهه بالقديس جان المعمداني[71]، كذلك الأمر بالنسبة لقبر سيدي أوشعا

---

68 – سورة الكهف: 77

69 - Moulièras : *Maroc inconnu*, II, 811 n

70 - Ibid .p. 287.

71 - Mohamed ben Rahal : *A travers les beni Snassen in bull.* Soc géog et arch d'oran, XII° anneé, tIX janvier –mars 1889. p. 19

وهو بحث هام جدا وغني بتدقيقاته ووضوح رؤاه، وهو عبارة عن معلومات أصلها ملاحظات أو إخباريات. ونتأسف لكون محمد بن رحال لا يمدنا أحيانا بنتائج أبحاثه، وبخصوص سيدي يحي فإنه يظن أنه يتعلق الأمر ببعض الأولياء المسيحيين الذين ظل أسمهم محترما عند الأهالي، وسيكون من المهم التأكد من هذه الفرضية.

الموجود قرب نمور يعتبره الأهالي مقبرة النبي يوشع[72]. ونعلم أيضا أنه يوجد بالمشرق عدة قبور مزورة أو مزيفة لأنبياء قدامى[73]. ويعتبر أهالي بني زروال في المغرب بعض جبالهم صالحة ويقولون أن سيدنا عيسى قد قضى به بعض الوقت، أنه جبل «للاأودكة»[74].

10 - أساطير إنجيلية مطبقة بالمغرب

وقد لعب سيدنا عيسى دورا هاما في عدة معتقدات مغاربية ،إلى درجة أن عدة متمردين تقمصوا شخصيته خاصة أننا نعلم أن الديانة الإسلامية تقول بأنه سيعود في آخر الزمن وهكذا وجدنا الأحمق البودالي من بني توفوت[75]، الذي كان يقود حربا ضدنا قد نشر «تصريحا» قال فيه : «أنا صورة من خرج من «نفس» الله، أنا صورة المسيح أنا المسيح المبعوث» وقد كان بالسودان الحاج عمر وسط هذا القرن (19) شغل الناس حتى سالت الدماء، وأضرمت النيران لقوله إنه المسيح.[76]

11 - صلحاء مسلمون يقدسهم اليهود

وقد أشرنا أعلاه إلى الأولياء اليهود، والصلحاء اليهود حيث يمكن أن نقول أنه قد يحدث تقريبا أن يكون بعض الصلحاء من أصل

---

72 - Mohamed ben Rahal, loc. cit

73 - Goldziher : Aus d. moh heit. kull. in Aeg. 3b et 5v –b du t.à p.

74 - Moulièreas, Maroc in connu, II 807 n

75 - محمد بن الحرش بودالت كان ذلك الزعيم الذي كان مع الباي عثمان في الحرب التي تحدثنا عنها أعلاه والتي كانت سنة 1804، علما أنه في سنة 1844، تقمص شخص يبلغ من العمر 30 سنة شخصية بودالي عاد بأعجوبة ليؤلب ضدنا إحدى القبائل الأكثر عنفا هم بني توفرت، والتصريح الذي أخذنا منه ذلك المقطع مأخوذ من :
Feraud : Notes pour servira l'histoire de Philippe- ville in Rev, afr, XIX année N° 112juillet – août 1875, p 258.
لكنه مع الأسف فإن فير ولا يورد نص التصريح كاملا.

76 - D.Lentx, Timbouctou, trad Franc par, P , Le hautcourt, Paris, 1886,1 p.173.

مسلم يحملون أسماء يهودية، «يقدسهم» اليهود والمسلمون. وهكذا نسمع عند يهود تلمسان الناس يدعمون فكرة أن سيدي يعقوب ذي القبر المشهور المدفون في مداخل المدينة[77] يهودي. ويزور اليهود هذا الصالح ويقدمون له القرابين مثل المسلمين ويلبسون في أغلب الأوقات مثلهم.

وفي تونس أيضا هناك ولي يزوره اليهود والمسلمون[78]، ويحكي شيني أنه يوجد ولي قرب فاس بجبل يسمى «أصقرو» ،يشترك البرابرة واليهود في تقديسه وأنه مدفون في هذه الجهة من إفريقيا منذ القديم قبل الإسلام، وأن النساء البربريات واليهوديات الراغبات في الإنجاب يصعدن على أرجلهن إلى زيارته في أعلى الجبل[79]، وهذا ما يحدث بالضبط عند سيدي يعقوب بتلمسان. وسيظهر من جهة أخرى أن المغاربة في فاس يحيون «ذكرى» «سول أشوال» وهو أحد يهود طنجة توفي في زماننا أثناء حملات التعذيب العنيفة من أجل ارتداده[80]. يورد في السياق نفسه النذر الشهير الذي أورده باركسي والذي توجه به أحد الصلحاء الشيوخ المسلمين إلى السيدة مريم[81] حيث يستعمل

77 - أنظر بهذا الخصوص: البستان في ذكر الصلحاء والأولياء بتلمسان مخطوط
Traduction in Bouges, Coupt, M., Beni- Zéiejan p 96.97.

78 - Lopie : Civilisation tunisienne, p 251.

79 - Chenier : Recherche historique sur les Maures et histoire de l'empire de Maroc Paris 1787, t. III p.154.

وشين كاتب مازال بحاجة إلى عدة معلومات ويجب الاحتياط في الأخذ عنه.
Maroc inconnu, II.605.

80 - Abbé Gadard, Description et histoire du Maroc Paris 186, I 83,84.

وهو كتاب جيد عن المرحلة. لكن يجب الإشارة إلى أن مؤلفه كاتوليكي متعصب، وهكذا نجده يشير دون أن يقدم أي دليل آخر أن سول أشول كان مسيحيا وليس تلموديا لأن الرهبان قد سمحوا رسميا ب L'asposrasie الخارجية لتلافي الموت، وأضاف أنه حسب معلوماته أن مكان تنفيذ الأحكام كان في إحدى ساحات فاس التي تحميها حامل تمنع التدنيس.

81 - Bergés, Coupl. De l'hist des Beni- Zeyan, p 558.

الإشارة مثبتة في أخر الكتاب.

عبارة :ستي التي أشرنا إليها أعلاه، وقد احتفظ بهذا التوسل في ثقب بالحائط يضم تمثال العذراء في كنيسة الجزائر. ويجب أن نضيف أن هذه الكنيسة كانت مسجدا قديما، والثقب المتحدث عنه هو محراب المسجد القديم الذي نجد أسفله كتابات مذهبة وآيات من القرآن تتحدث عن مريم ،وقد يفسر التفصيل الأخير تصرف الصالح الناسك[82]. ويشير لابي أنه مازال المسلمون يفسدون قبر القديس لويس باعتباره وليا[83].

12 - صلحاء يهود ومسيحيون يقدسهم المسلمون

ويحدث أحيانا أن يصبح المرتدون اليهود أو المسيحيون صلحاء. ودون الذهاب للبحث في حالات مثل حالات الدوق ريبردا المغامر الهولندي، والوزير السابق الإسباني اللذين تقدما لخدمة السلطان المغربي الذي هزمه الإسبان اعتنق الإسلام حسب ما يقوله بعض المؤرخين[84]، وأصبح مقدسا تحت اسم سيدي «عثمان». ويمكن أن نجد في الروايات الإسلامية أمثلة لمسيحيين أو ليهود أصبحوا صلحاء مسلمين، فالكل يعرف شبه جزيرة سيدي فروش التي رست بها الجيوش الفرنسية سنة 1830م، هنا يوجد قبر سيدي فرج (الذي أسميناه فروش) حيث تحكي الأسطورة أنه كان هناك قبطان اسباني يسمى روش أو روكو جاء للسباحة في هذا المكان، ووجد الولي نائما فأسره، لكن أشرعة سفينته أبت أن تتحرك بعد هذا التصرف الإجرامي، ولما غُفر له اعتنق الإسلام وأصبح خادم الولي، ودفن الواحد قرب الآخر وقضى سيدي روكو مع سيدي فرج الحياة معا إلى أن توفيا.

---

82 - وليس من غير الضروري أن نلاحظ أنه كان بالجزائر العاصمة قرب باب الواد مصلي أسسته صالحة تسمى ستي مريم أوستنا مريم، هدم في المراحل الأولى من الاحتلال.
Devoulx, Edifices reli de l'anc. Alger, in Mev, of. VIII année, N° 43 janvier 1864, p.29.30

83 - Lopie : *Civilisation tunisienne*, P 46.

84 - Moulièras : *Maroc inconnu*, II, 730.

ولما استقرت الأمور سنة 1847 م على هدم البناية التي آوتهما وُجد هيكلان عظميان نقلا إلى مقبرة سيدي محمد الأكبر. وهناك حالة أخرى أكثر أهمية أوردها صاحب كتاب «الاستقصا» حيث يقول «وفي سنة إحدى وستين وتسعمائة»، توفي الشيخ العارف بالله تعالى الكبير الشأن أبو النعيم رضوان بن عبد الله الجنوي نسبة إلى جنوة من بلاد الفرنج، كان أبوه نصرانيا وأمه يهودية، وسبب إسلام والده ما حكاه أبو العباس الأندلسي في رحلته : أنه كان له فرس ببلده جنوة فانطلق ليلا ودخل الكنيسة العظمى وراث فيها من غير أن يشعر بذلك أحد من السدنة ولا غيرهم، ثم بادر بإخراج الفرس، ولما أصبح أهل الكنيسة ورأوا الروث قالوا: «إن المسيح جاء البارحة عل فرسه إلى الكنيسة وراث فيها»، فاهتز البلد لذلك وتنافس النصارى في شراء ذلك الروث حتى بيع قدر الذرة منه بمال جزيل، فعلم أن النصارى على ضلال وهاجر إلى بلاد الإسلام فنزل برباط الفتح من أرض سلا فوجد هناك امرأة يهودية فتزوج بها وولدت له الشيخ أبا النعيم، منشأ مثلا في العلم والولاية ومحبة النبي صلى الله عليه وسلم[85]» فهذا ابن مسيحي ويهودية أصبح وليا، وهذه قصة بالأكيد لم نكن ننتظرها من كاتب غير متفتح مثل السلاوي الذي كان عليه وهو مازال حيا أن يعرف المثل المغربي القائل أن «اليهودي لا يكون مسلما إلا بعد أربعين جدا»[86].

والقصة التي رويناها تكفي فقط للتدليل على أن صفة الصالح مستقلة تماما عن مسألة الأصل والطائفة، وهذا مالا يتعارض أيضا مع العلم خاصة، أن أغلب الصلحاء أميون، وليست لهم أي ارتباطات

85 – الاستقصا: 191/5.

86 - Moulièras : *Maroc inconnu*, II, 709 n.

مع السلطة فلا يوجد بينهم موظفو دولة ولا أئمة ولا قضاه، ونستغرب عندما نجد بالمعجم الأكاديمي[87] تعريف الصالح بـ «اسم نجده في إفريقيا ويعطي لمسلم قيم على مسجد».

13 - كيف تصبح صالحا؟

إن الصالح ليس راهبا أو مرتبطا بأي مسجد، فلم يقبل الصلحاء القيام بأي مهمة دينية أو سياسية إلا بعد احتلالنا، فكيف تصبح صالحا؟ لهذه السبيل عدة طرق، إما العلم، أو السلوك الحسن، أو الشهرة بالعدل، أو الزهد، أو السلوكات الصوفية، أو الحمق بل الغباء الذي يمكن أن يرتبط بسمعة الصالح. وبمجرد الحصول على هذه الصفة تصبح وراثية[88]، وتضمن لصاحبها بعد الحصول عليها المكانة المرموقة في المجتمع، ويصعب على أهله التخلي عنها.

ورغم ذلك توجد أمثلة معاكسة[89] نجدها بكثرة «فالشرف» يفرض ذلك، وإذا رفض أبناء ذلك الصالح الاستمرار في الحفاظ على حظوة أبيهم فإن البركة تخرج من بين أيديهم، اللهم إذا كان أحد أتباعه الأذكياء يذكر الناس بأصله ونسبه90.

87 - Institut de France, Dictionnaire de l'académie française G, édition, t.II.p 164,1.

88 - CF Hanoteau ou et letourneux, Kabylie II, p.83,Rin, Marabouts et Khouan. 15, Lopie, Civilisation tunisienne, P 246.

89 - *Hanoteau et letourneux*.....op laud. U p.93

90 - Huganeteau et, *Souvenirs d'un chef de bureau arabe*, 1 vol, Paris 1858.
والكتاب هام جدا فقد عاش مؤلفه بين الأهالي وطالب بإدماجهم منذ عدة سنوات.

الفصل الخامس

معنى كلمة صالح

1 - الصالح بالولادة

ويجب أن نضع من بين الصلحاء بالازدياد الشرفاء في المرتبة الأولى أو «أولاد النبي» كما يقال، وفي هذا السياق يقال «أولاد سيدي أحمد الكبير صلحاء»، وبسبب ذلك تسمى عدة أماكن التي يسكنها الشرفاء : المرابطون. وقد استطاع هؤلاء الصلحاء أن يكونوا طبقة أو فئة خاصة تعيش وسط لقبايل دون أن يختلطوا بهم، فالصلحاء في لقبايل لا يتزاوجون عادة إلا فيما بينهم ولكن ليس من النادر أن يتزوج صالح إحدى «لقبايليات[1]» ومن النادر جدا أن تتزوج إحدى الشريفات قبايليا.

والصلحاء يقفون محايدين في الحروب، ولم يحملوا السلاح قط منذ القديم، وكانوا معفون من الضرائب والأشغال الشاقة ويستشارون في كل الظروف العصيبة بل أنهم يحكمون في النزاعات ويحتكرون في النهاية الشأن الديني[2]. ويمكن أن يقال إنهم دائما محترمون في كل مكان. ومن أقبح ما يشتم به أحد العرب قولهم «ينعل والديك» أو «الله يحرق بوك» وهذا ما لا يمكن أن يسب بها شريف، لأن في ذلك سب الأسرة الرسول بل وللرسول نفسه[3].

---

1 - وهذه هي العادة نفسها عند جميع الشرفاء بالجزائر، أنظر على سبيل المثال
La Mart, et lac, Document II p.324- 345.

2 - Hanoteau et letourneux, kabylie, II p.84.85.

3 - Cet. l'islamisme et les confréries religieuses au Maroc. In rev des b.M.t CXL n° du 1.5 Septembre 1896, p.380- 381.

وهذا المثال هام جدا بخلاصاته وأضاء لناء المسألة الدينية بالمغرب.

ويشكل الشرفاء -في المغرب خاصة- الارستقراطية المحظوظة مثل شرفاء جبل العلم بوزان وتافيلالت، فلهاتين العائلتين الكبيرتين تأثير كبير على الأطراف الأخرى[4]. إنهم الشرفاء وخاصة شرفاء المغرب هم من ادعوا المهدوية أو أن أحدهم هو المهدي «سيد الساعة»[5] وهم من حرك ضدنا الجزائريين طيلة أكثر من نصف قرن.

وقد استمرت معتقدات في المغرب الكبير عن الإمام المهدي الرجل الذي سيظهر في آخر أيام الدنيا حسب المعتقدات الإسلامية وأنه سيظهر خصوصا في سوس[6]، لكن المغاربيين يتجهون بنظرهم إلى المغرب أكثر ما يتجهون إلى المشرق، وهكذا يلاحظ أن عبيد الله نفسه المهدي المشهور المؤسس للدولة الفاطمية لم يأت من المشرق بل ظهر في سجلماسة (بتافيلالت).

2 - الصالح بالأعمال الصالحة

فباستثناء الولادة / النسب، فإن المعرفة، والسلوكات الصحيحة والكرم والاستقامة يمكن أن تساعد من سيحمل لقب صالح، ولكن لن يتأتى هذا إلا في حالة واحدة أي بعد مماته، لأن في الحياة الدنيا ليس هناك من صالح إلا من هو من نسب الرسول الذي ورث عنه البركة أو من له صفات خارجية مميزة تجعله يحظى بالعناية الإلاهية، ومن بين هذه الصفات الخارجية: الحمق، والزهد، وملكة الكرامات.

---

4 - Le chatelier, l'islam dans l'Afrique occidentale 1 vol. Paris 1899, p 16.
ومعلومات أو أفكار لوشاتوليي عن الديانة الإسلامية قد اكتسبها من الدراسات العديدة والرحلات العديدة إلى المشرق والمغرب والسودان دون الحديث عن تجربته الطويلة في الشؤون الجزائرية.

5 - الكل يعرف رواية هوكس التي تحمل هذا العنوان.

6 - Mohamed bou Ras, voyages extraordinaires et nouvelles agréable, trad Arnaud, in Rev, of XVIII ann, 1883 p 85.

3 - الصالح بالحمق

وهكذا نجد الحمقى والأغبياء / البلهاء ومن يقومون بتصرفات غريبة ينظر إليهم بكثير من الاحترام الشعبي، وهذه من طرق الولاية «فالمسلمون يعتقدون أن «فكر» الله موجود العقول الفارغة لهؤلاء المنسيين»[7] فهؤلاء البهاليل (البوهاليون) المرتدون للألبسة الرثة يتجولون في الشوارع والأزقة ويأكلون ما يتصدق به عليهم. وهكذا يوجد «بوهالي» أكثر تأثيرا وشهرة في منطقة بني عروس شمال (المغرب) يسمى سيدي الحسن ثارزرت[8] متصف بالحمق قد يكون حقيقيا ينظر إليه على أنه رباني ورسول، وأصبح منزل ابنه عبد السلام مزارا حقيقيا يقصده كل جبالة، وتعتبر أبسط عباراته حكما، ويوثق ببعض الإشاعات المتعلقة به من ضمنها أن هدوء جبالة لما مر بهم السلطان سنة 1889 م يفسر في شق منه بأن مرده إلى أنه في إحدى الأيام قبل خبر مجيء السلطان، حلق سيدي عبد السلام شعره دلالة على الخضوع للسلطان وبيعته[9].

4 - الصالح بالتقشف

كما نجد في كتاب موليراس إشارة إلى أحد البوهاليين المسمى سيدي محمد البوهالي أبله يحترمه الناس كثيرا ويجبرهم على أكل خليط من الشعر و«النخال» والكسكس والعسل والتراب ويستجاب لكل نزواته الغريبة، وأهديت له امرأة. واليوم تستقبل زاوية سيدي محمد البوهالي، أو ابنه عبد الرحمان الذي ورث بركته لكن ليس غباءه عدة قرابين (هدايا) يأتي بها الزوار[10].

---

7 - loc.cit, p381.

8 - هل هو ناسك تزروالت لموليراس؟ Moulièras, Maroc inconnu. II: 197

9 - De la Mart, et lac, Document, t.l. p.371, 372.

10 - Moulièras, Maroc inconnu . II : 295 – 297.

وتوجد زاوية سيدي محمد البوهالي في بني سميح (غمارة).

ومن هنا أتت مسألة كون عدة قوى صلحاء تسمى البهاليل[11] (جمع بهلول) ويسمون في لقبايل ابهلال[12]، وهناك مثال جيد للبهلول والمجذوب -لأن الكلمتين مترادفتان تقريبا- هو للدرويش بن نونو من واركَلة الذي وصف مساره جيدا لاركَو[13] ونذكر في الباقي أنه لا يوجد بهلول في هذه المنطقة لا تلصق بنشأته وحياته خوارق. وفي اليوم نفسه الذي دوننا فيه هذه المعلومات رأينا في شوارع وهران أحد هؤلاء «الملهمين» من البهاليل يشرب الخمر، ويأكل لحم الخنزير في واضحة النهار وأمام العموم في يوم رمضان دون أن يجرأ أحد ليحدثه في الموضوع.

5 - أجسام الصلحاء

وقد تذكرت لما كنت مكلفا بإدارة الأهالي أنني كنت مضطرا لأعطي الأوامر لأحد خيالة الجماعة بإيقاف هؤلاء الحمقى الذين يثيرون الفوضى في الشارع، ولكن الخيال كان لا يقبل إلا على مضض، ولما يقاومه ذلك الأحمق يخبرنا الخيال أنه لم يستطع السيطرة عليه. بل ينظر إليه على أنه يملك قوة خارقة وأن إزعاج هذا المقرب من الله قد يجلب إليه النحس والمصائب.

وقد أقدم دريمون هاي ممثل انجلترا بطنجة على التكفير عن خطأ إطلاقه النار على أحمق لما دخل ضاحكا حاملا سلة من البطيخ، وسبق لأحد البهاليل أن ضرب بعصا قنصلنا بطنجة السيد سوردو سنة

---

11 - أنظر مثلا:
Foucauld : *Reconnaissance*. p.24, 37, Moulièras Moulièras : *Maroc inconnu*. II : p. 23

وارتكب فوكو خطأ في تقسيم الكلمة.

12 - Hanoteau et letourneux, Kabylie, II, p.94.

13 - Largeau : l*e pays de Rirha, Ouargla, voyage à Rhadnes*, 1 vol. Paris, 1879,p.197,206. ولاركو رحالة مدقق جدا

1820م ،ولما اشتكى القنصل إلى السلطان مولاي سليمان أجابه بدون تردد أن عليه أن لا يكترث بتصرفات أحمق وأن عليه إعمال الصفح المسيحي عن المسيء[14]، ومن ثمة لم يعد أحد يشتكي في مثل هذه الحالات المشابهة.[15]

ولما أحس بو بغلة في في آخر أيام ثورته بأنه يريد العودة إلى مجده وعزته شرع في مفاوضاته من أجل التزوج بلالة فاطمة أكبر عرافات القبايل التي نظمت التمرد ضد قواتنا سنة 1875. فهذه الصالحة التي كانت قد بلغت سنا متقدمه وسمينة جدا سبق لها أن كانت متزوجة بأحد صلحاء بني اتوارغ وهجرته لما كان عندها 16 شهرا أو 18 شهرا لتلحق بأخواتها لكن زوجها لم يرد أبدا تطليقها جريا على عادة لقبايل ولم يستطع أن يتزوج بعدها لكن رغم ذلك تقدمت المفاوضات بينه وبين بوبغلة الذي كان يريد الزواج منها عندما قتل في 25 دجنبر 1854.[16]

6 - سلوكات الصلحاء

لكن لا زلنا لحد الآن لم نفهم كيف أقدم سفير ايطاليا على كتابة رسالة تشكي إلى السلطان بعد أن أهانه أحد المجاذيب[17]. ويظهر لنا مؤرخو شمال إفريقيا كيف أن هؤلاء المجاذيب كانوا يتمتعون بخوارق ويستطيعون قول أي شيء للسلطان، «وكان ممن دخل في غمار الناس رجل من البهاليل ممن كانت له شهرة في الوقت بالصلاح، فقال له المنصور عابثا به: كيف رأيت دارنا هذه يا فلان فقال له إذا هدمت

14- Godard, Maroc, I p.87.

15 - La bin, Hist du cher, baghla in rev, afr. XXVIII ann, n°165 janv-fev,1884-, p. 176- 177.

16 - Cf . Rev, of XXXVII…., n° 162, …. des 1883 p. 434, 435.

17 - De Amicis, Le Maroc, 1 vol, Paris, 1882, p 150.153

كانت كدية كبيرة من التراب[18]»، وهناك نموذج غريب آخر يدرس في مثل هذه الحالات إنه أبو الرواين الذي عاش في فاس خلال القرن السادس عشر حيث كان يتنبأ بانتصارات كل المتعاقبين على الحكم وهزائمهم، واقترح على محمد الشيخ السعدي أن يرجع إليه فاس وكان يتنبأ بوفاة شخصيات هامة، وكل تنبؤاته تحصل بالفعل. وكان هؤلاء البهاليل يحظون باحترام السكان مما جعل السلاطين يحترمونهم أيضا لكي لا يثيروا غضب رعاياهم. [وقد جاء في نزهة الحادي أنه]» حكي أن عبد الله بن الشيخ في بعض غلباته لأهل فاس في ثوراتهم عليه، استشفعوا له خوفا منه وطلبا لرضاه عنهم بالوليين الصالحين المجذوبين سيدي جلول بن الحاج وسيدي مسعود الشراط، وكانا على قدم الملاماتية ،فلما وقفا بين يديه قال: ما وجد أهل فاس شفيعا يقدمونه إلي غير هؤلاء الخرائين في ثيابهما. فغضب سيدي جلول وقال: والله لا تتصرف فيها يعني في فاس، إحدى وأربعين سنة وانصرف، فيقال أن عبد الله انقلبت معدته فخرج غائطه من فمه أياما إلى أن أتى بالشيخين فاسترضاهما»[19].

ويتشبث الناس كثيرا بهؤلاء «البوهاليين» حتى إن غيابهم يعد كارثة أو فاجعة لهم، فلما غادر الدرويش الورع بن نونو وركَلة تبعه الأهالي وأرجعوه بسرعة كبيرة[20]. وهكذا نستنتج بسهولة كبيرة الأهمية الكبرى لهؤلاء «البوهاليين»، وقد كان من بينهم من يتعامل مع الفرنسيين فقد أورد شيني أن أحد المجاذيب كان يتقاسم معه الهدايا التي يعطونه الناس. وأنه كان يمازحه ويتحدث معه عن الطريقة التي يتحامق بها.

---

18 - نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، 190 محمد الصغير الإفراني تقديم عبد اللطيف الشاذلي، ط 9419 - 1998. مطبعة النجاح الجديدة.

19 - نزهة الحادي : 344.

20 - Largeau, op.land, p204.

وهناك أحمق آخر عند بني امحمد (الدوغ) قد باح بسره إلى أحد الرحالة الفرنسيين فقال: «سأفضح أمرك، فأجابه الصالح : حاول فلن يصدقك أحد[21]»، وأخيرا صرح الدرويش الشهير محمد بن الطيب الذي أمد موليراس بأهم المعلومات لكتابه الغني عن المجتمع المغربي بطريقة غير مباشرة أنه يقضي حياته في التحايل على أتباعه حيث يبدو في الشارع أحمق من خلال الطريقة التي يمشي بها، وهيئته وتحركاته غير المنسجمة، والطريقة التي يتكلم بها، وقهقهاته العالية فيبدو ملهما أو منورا كثيرا يقف المسلمون حتى يمر احتراما له وتتسابق النسوة للمس برنوسه، لكن الواقع حسب موليراس أن هذا الرجل يبدو في جلساته خاصة مع الفرنسيين أنه ذكي جدا وحيث نضحك كثيرا من السهولة التي أثر بها في الناس حتى أصبح يظن أنه «مختار» من الله[22].

فباستثناء النسب المتوارث، والغباء الحقيقي يمكن أن تصبح من خلال هذه التصرفات أو المجهودات وليا وصالحا باستعمال الزهد. وقد أوضح كَولزهير كيف دخل الزهد إلى الإسلام ضدا على الوصايا الأولى للرسول، واليوم أصبح هذا السلوك هو الطريق الطبيعية للوصول إلى الصلاح .فكل راغب أو طامح إلى الصلاح يختلي تحت شجرة ما، أو في مغارة أو كوخ مهجور، فهنا يكون الانعزال والهدوء حيث يتفرغ للصلاة والصوم .ومن الهام أن يكون أجنبيا أو غريبا لأنه ليس من السهولة أن تكون «نبيا» بين أهلك سواء عند المسلمين أو غيرهم، حيث ينتشر فيما بعد خبر أن شخصا قدم من بعيد وغالبا ما يكون من أعماق الغرب، ناسكا قد استقر بالبلدة، فيسرع الناس لتأمين حاجياته، ويرفض كل فائض عن حاجياته، ويلح عليه بعد الطلب المتكرر

21 - Béchade, la chasse en Algérie, p 205.206.

22 - أنظر نهاية الجزء الثاني من كتاب موليراس Le Maroc inconnu حيث يقدم فيه صورة محمد بن الطيب حيث أحدث في مرحلة رخاء مرت من وهران، التقى فيها محمد موليراس.

أن يبقى معهم وألا يغادرهم. ويحدث حدثان مفرحان عندهما وهما إخفاء الرضى على حضوره معهم، والتحكيم في الصراعات التي تكون بينهم ويبدأ صلاحه في الانتشار، فتقتطع له قطعة من الأرض وتهدى له امرأة، وتقدم له هدايا في الزيارة، ويطلب أن يبارك الأرض التي هو فيها، ويكونون فرحين بهؤلاء الصلحاء المحليين ويحبون أن يتباهوا بهم أمام صلحاء القبيلة المجاورة، مثل انجلترا حيث تتباهى مدينتان بملاكميها المفضلين[23]. وتوجد في المغرب قبائل مثل بني أحمد السرّاق أو الجبل الحبيب العاجين بكثرة هذه الأضرحة[24].

وأغلبهم صلحاء مسلمون حقيقيون[25]، ولكن الصلحاء الذين أصبحوا مشهورين لا يتوانون في أن يظهروا مرتاحين ماليا. ونستمع لما يقوله الجنرال ويمبفن عن أولياء القناطسة الذين يشاع عنهم أنهم فقراء «هؤلاء الأشخاص الورعون المرتدون للألبسة الفاخرة، ذوو صحة جيدة وأبدان سليمة وقامات جميلة يمتطون أحسن البغال تجري بجوارهم في قدام حافية عبيد من السودان في منظر يذكرنا بالعصور الوسطى»[26]. ونجد كذلك الأمر عند توات «الحاج عبد الرحمان، وهو صالح مغربي يحيا حياة مترفة، ويده دائما مفتوحة لاستقبال المزيد. ويتقاسم الصلحاء مع الفئران الامتياز بكونهما الحيوانين الوحيدين السمينين[27]» ويصل أغلب الصلحاء الكبار بسهولة إلى السمنة تدل على أنهم ليسوا بحاجة لتقوية تأثيرهم من أجل التفرغ إلى التنسك.

---

23 - St Bousol, Marocco as it is, 1 vol Landes, 1893, 186.

وهل كتاب هم في السياسة.

24 - Moulièras, Maroc inconnu, II 740, 766.

25 - cat. Confréries religieuses du Maroc, Loc. Document, II, P397

26 - De wimplfer, ap de la Mart, et lac, Document, II, p.628.

27 - Pulet, journal de cout, 1 vol; paris, 1886, p.266.

وهو آخر رحالة زار توات قبل قبضة ابن صلاح.

و كان المرحوم شريف وزان عبد السلام سمينا جدا ،لكن أباه الحاج العربي يفوقه كثيرا في هذا الاتجاه «فلم يكن بإمكانه، السفر إلا بواسطة عربة كبيرة يجرها ثمانية بغال»[28]. وكذلك كان الشريف المشهور بوبغلة الذي ألب ضدنا القبائل سنة 1854م، وكذلك كان الحاج محمد الذي لقب ببومعزة (الثائر الشهير بالظهرة) حيث إنه كان من المستحيل إيجاد فرس لحمله[29]، وهذا هو المكان للتذكير بالاعتقاد الغريب القائل بأن لحم الأولياء سم وهذا اعتقاد شائع في المشرق، ووارد عند علماء مسلمين وناقشوه فيما بينهم.[30]

ولم يعد الضريح المتواضع والدعوات أو الأذكار المتعددة عبر الجولات في مختلف القبائل وارتداء الخرقة الممزقة كافية للتذكير بالله، بل السيد المهاب والمحترم هو من يسهل له أتباعه العمل. فالسبحة التي يزين بها صدره تحفة مزينة بالأحجار الكريمة و تختفي عبر الصدرية سلسلة تحمل ساعة ذهبية[31]. وكانوا يتقربون إلينا لنيل حاجاتهم بدعوى أنهم أبعاد فقراء حيث كنا نجدهم في قاعات ضيافتنا يحضرون إلى عروض الرقص الرسمية ويرتشفون قهوتنا من شرفات شوارعنا الباريسية لا يتورعون من شرب بعض مقبلات فتح الشعبية وتصرفاتهم في هذا الوسط «المدوخ» بالنسبة لهم تبعدهم كل البعد عن «صلاحهم»، وقد تلقى بعض منهم ممن تعلم بمؤسساتنا تكوينا وتربية أوربية، فهذا لم يكن من الغريب أن نسمع أبناء مولاي عبد السلام وزوجته الأنجليزية يتلون سورة الفاتحة بلكنة لندنية[32].

---

28 - Robin : Histoire de chérif ben bar'la, in rev, afr. XXVIII ann, n°163 janv-fev,1884, p. 166.

29 - Id, op Laud, Rev, afs.XXVII ans, N° 153, mai-juin 1883, p187.

30 - Cf René Basset, Sanctuaires du jbel Nefousa in journ, 9°Ser . t XII . mai-juin 1899 p.166.

حيث نجد إحالات على كتاب عرب، مثل الكتاني: «سلوة الأنفاس»

31 - Depont et Coppolani, Confréries religieuses, p.245.

32 - Bonsal, Morocco it is, p 168.

ويحكي بونسال أن أول مرة رأى فيها مولاي علي بكر أحد الأولياء الأنجلو مغاربة قادما من منطقة زمور رفقة أتباعه المحيطين به باحترام فوق جواد متراخ لم يملك نفسه حتى صرخ[33] : « ألا تستطيع تعليق لجام فرسك بسرعة؟» ?Hang it, go on can't you

7 - الصلحاء والإدمان على الخمر

وفيما يتعلق بتناول المشروبات الكحولية فإن مولاي عبد السلام كان يتناولها بطريقة عجيبة. والغريب أن أتباع الصلحاء لم يتفرقوا عنه رغم علمهم بهذه الأشياء[34]، والكاتب الأنجليزي الذي أخذنا عنه هذه المعلومات كيف أن صالحا مغربيا يحتسي قنينة ويسكي بشراهة وكان يعتقد أتباعه أن ذلك داخل في الصلاح، وكان يجيب صحيح أنه يشرب الخمر، لكن ولايته تجعل حنجرته تتذوقه باعتبار حليبا[35] وهذا هو التفسير الذي نسمعه عموما في كل المغرب عندما نتحدث إلى أحد الأهالي عن صالح ما.

وبالنسبة للصلحاء في المغرب الذين ليس باستطاعتهم شرب الخمور الأوروبية يتناولون ماء الحياة «الماحيا» أو مشروبات كحولية مصنوعة إما عن العنب المجفف أو من التين، أو من التمر،[36] ويمكن أن نتعرف تقريبا في كل مكان على الصلحاء الذين يدخنون الكيف ويشربون ماء الحياة في استعمال مزدوج يدخل ضمن خصائصهم المميزة[37]، وقد كان أهالي المغرب يصنعون ومنذ مدة مشروبات

33 - St : Bonsal. Morocco .as it is, p.168
34 - Béchade, chasse en Algérian, p 199.
35 - A : Bonsal, Morocco as it is, 189.
36 - De Foucault Reconnaissance., 397, u.1.:
37 - De Foucault Reconnaissance p.35.

كحولية، إما ماء الحياة بل خمور العنب[38]. لكن يجب الاعتراف بأن الصلحاء الجزائريين والتونسيين اليوم أكثر اعتدالا واحتشاما في هذه الأمور من زملائهم المغاربة.

8 - الصلحاء والإدمان على الفسق

ويصلح فصل الفسق لأن يكون موضوع ملاحظات «مخادعة» بالنسبة لتصرفات الصلحاء. ونحن نعلم أن محمدا ضد هذه السلوكات، وكان أحد المصلحين المتزمتين زعيم المرابطين عبد الله بن ياسين يتزوج كل شهر عدة نساء فلم يكن يسمع ببنت جميلة إلا وطلب زواجها كما قال أحد المؤرخين[39]، ودون أن نذهب بعيدا يمكن أن نذكر أمثلة مشابهة وعديدة في الجزائر الحالية، حيث يوجد الشيخ بوتلالس العجوز وهو شخصية دينية محترمة معروف بالسهولة التي يكتسب بها النساء ويدعوهن، وكذلك الشأن بالنسبة للشيخ الشهير بوبغلة الذي تحدثنا عنه حيث كاد أكثر من مرة أن يفقد صوابه واحترامه أمام شدة حبه لجاريته حليمة بنت مسعود عن أب أسود وأم بيضاء[40].

---

38 - من الغرب أن نلاحظ في تاريخ أفريقيا الشمالية ظهور مصلح يشرع في تهشيم الآلات الموسيقية وجرات الخمر، وكانت إدارات الأهالي تفرض ضرائب على بائعي الخمور Chronique de Zarkachi, tra; fagan190 ويتحدث لنا المؤرخون أنه كان عند العباديين محل يشبه المرقص يسمى مجلس الخمار. René Basset Sanctuaires du jbel Nefousa in journ, 9°Ser . t IX Serie t. XIII n° 3 mai-juin 1899,p.456
ويسمىء أكبر ولي عند فشتالة مولاي بوشعيب الخمار- Moulièras, Maroc 92 inconnu, II

39 – القرطاس: 167.

40 - وقد سبق لشريف يدعى محمد الهاشمي سنة 1849 الذي سمي أيضا ببومعزة قد زار لالة فاطمة زيارات متعددة، ولما كانت الصالحة مازالت جميلة كانت هذه الزيارات مشبوهة ومحط تعاليق سيرة.
Cf. Robin, Histoire d'un chérif de la grande kabylie, in reu, of X n° , 82. juillet 1870 p. 353.

ويمكن أن نعدد الأمثلة في هذا الاتجاه، لكن ليس من الضروري التأكيد على هذا الموضوع، ولكننا لا نستطيع رغم ذلك أن نقول كلمة مثلا عن هذا الإعجاب الأعمى بالنساء الذي يمكن أن يؤدي إلى حرمان الصلحاء من وقارهم، وكذلك التصرفات الماجنة المتكررة التي يقوم بها المجاذيب في الشارع ، فقد حكى لي بيلسي دو رينو عن أحدهم «يلامس» النساء في الشارع وكان أتباعه يغطونه بسلاهيمهم عند تأديته لهذا التصرف «التقي[41]» وقال شيني «أنه كان أحدهم في تطوان قد التقى النساء خارجات من الحمام، وبعد معاكسات اختار أصغرهن وأجملهن وقادها إلى وسط الشارع ليضاجعها، فأحاطت بها رفيقاتها وزغردن من الفرحة مهنئينها عن حسن حظها، وتلقى زوجها نفسه التهاني بالمناسبة[42]» وأشار هايدو أن هذه الدناءة كانت موجودة أيضا بالجزائر أثناء الاحتلال التركي، لكن تصرفات مثل هذه لا تتكرر اليوم أكيدا بالظروف نفسها، والقبائل المسلمة تغض الطرف عن عدة مغامرات «مشابهة». رغم ذلك يحدث أحيانا أن لا يكترث أحدهم بمثل ذلك الشخص من «بابور» الذي أجبر أن يشارك درويشا منزويا في أحد الكهوف الفراش طمعا في البركة. ولما علمت السلطات بالحدث اقتيد الدرويش أمام محاكمنا وعوقب ببعض الأشهر سجنا[43]، وهذا نوع من الأحداث التي تقع وتجعل المسلمين الأفارقة يتركون الصلحاء أحيانا يخالطون نساءهم.

41 - Pellissier de Raymond Annales algériennes , éd de 1854; 3vol 3 p. 489
الكاتب مؤرخ مدقق والحادث الذي وصفه قد يكون نفسه الذي حكاه.
Bechade, La chasse en Algérie p.195
الذي نحيل عليه القارئ حتى لا نأخذ استشهاداته.
42 - Chenier.op land, III, p 152.
43 - Depont et coppolani, confréries religieuses, p.250- 251.

9 - صلحاء تزوجوا مسيحيات

وكان زواج صالح ما من إحدى بنات عائلة ما لم تكن صالحة قيمة اجتماعية مضافة إذا لم تكن هذه العائلة «مرابطة»، وهذا يحدث أحيانا في القبايل حيث يشكل الصلحاء فئة واسعة، وقد سبق لنا أن قلنا إنه لا يقال لهذه الزوجة الصغيرة لالة «مذكرينها دائما بدونية نسبها». وتظهر لنا الكتب المناقبية تهافت الأسر على تزويج بناتها للصلحاء الغرباء الوافدين على البلد، ومن النادر جدا أن يتزوج صالح مسيحية زوجة شرعية ورغم ذلك لدينا عدة أمثلة عن مثل هذه الحالات. فقد سبق لسيدي أحمد التجاني شيخ زاوية عين ماضي أن تزوج في بوردو بالسيدة إميلي بيكارد التي يعود إليها الفضل في تحويل كوردان من صحراء قاحلة إلى إقامة خضراء. وكذلك مولاي عبد السلام شيخ التربية الذي تحدثنا عنه عدة مرات قد سبق له أن تزوج معلمة أنجليزية[44] وأخيرا -ومند مدة قريبة -طلب سي حمزة شيخ أولاد الشيخ يد بنت أحد رؤساء محطة السكة الحديدية[45]. ولم يبد أن هذه الارتباطات أو الزيجات قللت من حظوة الصالح وسط أتباعه.

---

44 - أنظر بخصوص شريف وزان ، Morocco, p.117-118 La Mart

45 - لا يوجد أقل من 13 امرأة/ زوجة فرنسية في حريم مولاي عبد السلام ومولاي محمد ومولاي حسن أنجبت أغلبهن، وقد اختطفت إحدى أجملهن من ضيعة متيجة بواسطة أحد فرسان عبد القادر وأهداها للسلطان عبد الرحمان ولدت له إبنان ربيا كباقي الأمراء، ولما بلغا سن الثلاثين وأحسا بأصلهما، الفرنسي أحدثا بعض القلاقل في القصر فكان مصيرهما الاعتقال (La Mart, maroc p.316.317) ومن الغريب مقارنة هذا المقطع مع ما أورده M. Aumerat عن عائلة Lanteriane التي اعتقلها العرب سنة 1836 بواد بني مسوس قرب الجزائر، وذهب بالأب إلى بسكرة وأطلق سراحه لكنه توفي بعد مدة قصيرة، فأرسلت السيدة Lanteriane. وابنتها إلى المغرب فأغرم ابن السلطان عبد الرحمان بالبنت التي كان عمرها 18 سنة وأسلمت فتزوج بها فأصبحت أميرة، واكتسبت قوة كبيرة في قصر المغرب تحت اسم « الأميرة داكية»؟ Souvenirs algériens, A vol Blida, 1893, p.309313-.

وهكذا وقفنا على الدور الهام الذي تقوم به المرأة في حياة الصلاح بالمغرب. وقلنا سابقا إن الإسلام كان قبل كل شيء «دين رجال».

10 - دور المرأة في الصلاح

ومن يريد أن يقف على هذا الأمر فليراجع الصفحات التي خصصها كَولد زهير للمسألة في دراساته عن الإسلام. حيث خلص أنه رغم بعض القيود الفقهية لم يوجد أي نص في العصور الوسطى الإسلامية ولا الأولى تحرم المرأة من أن تكون الدرجة نفسها للصلاح عند الرجل[46].

11 - عتاقة نبوءة نساء صالحات بالمغرب الكبير

وهكذا كان في المشرق عدة صالحات منذ القديم ومازال حضورهن مستمرا إلى حدود أيامنا هذه. وتتضمن كتب تراجم الصلحاء أسماء العديد منهن، وذكر كراماتهن المشابهة لزملائهن من الرجال، بل توجد كتب خاصة فقط بتراجم الوليات[47]. وكانت بالمشرق تجمعات دينية نسائية»وزاهدات مسلمات، ودور عبادة نساء في مصر ومكة وشمال إفريقيا. ويذكر الجغارفة المسلمين اسم موناستير -حيث الاسم دال-، ملتقى عدة زاهدات مسلمات[48]. فمن الخطأ القول وبشكل متكرر أن المرأة لم يكن لها أي دور في الإسلام المشرقي وأن ثقافة الصالحات مسألة خاصة بالإسلام المغاربي.

ولكن إذا كانت زيارة الوليات أمرا ليس خاصا بالمغرب، فلا يمكننا تجاهل أنها عرفت انتشارا هنا أكثر من أي مكان آخر ويمكن تفسير الأمر بسهولة

46 - Goldziher, muh st, II p 295 sep, spec. 299.
47 - Goldziher, Moh, St p .300.
48 - Goldziher, 301, 302 مع إشارة هامة وردت عند المقريزي

إذا عرفنا أن البربر حسب ما أورده بروكوب[49] كانت لهم عرّافة يقدرونها كثيرا، ونساء مثل الكاهنة الشهيرة[50] ومثل حبيسة بني يملول (الأوراس)[51] ومثل زينب النفزاوية، زوجة يوسف بن تاشفين ومثل «شمسي» التي كانت زعيمة القبيلة في القرن السادس عشر في قلب لقبايل[52] حيث استمر وجود ظاهرة «الرسولات» منذ العصر القديم والوسيط[53] ولا تفتأ أن تنتشر هذه الظاهرة عبر العصور مادام الإسلام يشجعها، وهذا ما حصل اليوم حيث كثر وجود الصالحات على امتداد السواحل، وسنذكر بعضهن على سبيل المثال فقط من الشرق إلى الغرب ثم إلى الجنوب.

12 - أسطورة صالحة

عرفت عدة نساء بالعلم والصلاح عند العباديين بجبل نفوسة[54]، ولا زالت قبور كثير منهن محط زيارات متعددة، ونجد ذكر أسماء كثيرة في كتاب باسي عن أضرحة جبل نفوسة[55]، وكانت إحداهن سوداء أسلمت لما سمعت القرآن[56]. ويوجد على القرب من أحد أبواب تونس باب الفلاح قبر لالة عائشة المنوبية المزدادة بالمنوبة غرب تونس المشهورة بكراماتها الثمانين وقصائدها المدحية التي تتلا على قبرها[57]. وقد نشر سونيك الذي أشرنا إليه إحدى قصائدها، وأخبر أن المنوبية مشهورة جدا جعلته يكتب ترجمة عن مناقبها.

---

49 - Procope, éd, Dindurff, II, 8 (Cop. Script. hist. buz)
50 - Fourual : Les berbères. 2 vol Paris, 1875, I p.215
وهذا صح كتاب عن تاريخ المغرب الوسيط.
51- Masque ray : Formation des likes chez les populations Sédentaires de l'Algérie p.170.
52 - Masque Ray : op laud, p.132
53 - Gold ziher, Almohadeneyung, Z. D. M, G, X L I, 1887, p, 55.
54 - De calassanti Mofylinski Djebel.Nefousa p.91 et u .1.
55 - journ asiat, IX Ser, tXII, mai- juin 1899, n°3 p. 413 seq.
56 - id.t XIII, p.463.
57 - Sonneck, six chansons arabes en dialecte maghrébin in jour. asiat, I X. serie t X I I, mai-juin 1899, n°3 p.417 et t.14 juillet- aout 1898, n°4, p.121
والكتب ليست ذات قيمة لسانية كبيرة، وإنما مادة فولكلورية هامة جدا.

ويوجد بالقبايل الكبرى في أعلى جرجورة مكان سمي لالة خديجة نسبة إلى الصالحة بذلك المكان لكن أشهرها صالحات لقبايل في هذا القرن «العشرين» هي لالة فاطمة التي تحدثنا عنها سابقا، والتي كانت زعيمة المقاومة لأهل جبل، جرجورة سنة 1857م وكانت من عائلة صلاح قوية وغنية لم تكذب تنبؤاتها قط، فقد تنبأت نفسها بالاحتلال الفرنسي واعتقالها. وقال شاهد حاضر أثناء الاحتلال أنه رغم سمنتها الكبيرة لم تتغير ملامحها الجميلة عندما قادها الفرنسيون إلى قلعتهم بعد الاستيلاء على قرية إيليتن، حيث كان الكحل يزين رموش عينيها السوداويين الواسعتين، و«الأوشام» المتناثرة تزين وجهها وذراعيها، والشعيرات السوداء من رأسها تتمايل من تحت منديل شعرها، وكانت ترتدي لحافا على طريقة النساء «القديمات» وكان المنديل الأبيض يغطي عنقها. ويظهر وجهها تحت تصفيفة شعرها مثل حجاب ريبيكا دي فانهو كانت يداها البيضاوان تزينهما الخواتم، وتتحلى بدمالج ودبابيس ومجوهرات أكثر من إلهة قديمة[58]، هكذا كانت بطلة الدفاع الوطني لقبايلي، فقد تبعت بدورها طريق النساء الشهيرات اللواتي أشرنا إليهن سابقا.

ولم تكن وحدها في التاريخ الجزائري المعاصر التي كان لها هذا الدور، فهناك مثال آخر حيث عرف سنة 1847م بدائرة أو مال حسب تقرير رسمي أن امرأة من أولاد سيدي إبراهيم تسمى فاطمة بنت سيدي التواني عندما قتل بطلقات إحدى المدافع أصبحت صالحة وموحى لها، وكانت امرأة جميلة جدا يصحبها في موكبها شبان فرسان يافعون مسلمون، يبدو أنها تؤثر فيهم كثيرا، حيث كانت تتجول دون تحديد وجهة معلومة، وتقوم ببعض التنبؤات غير المفهومة، لكن أعداد موكبها تزداد يوميا حتى إنهم أصبحوا يشكلون خطورة قائمة، و تنبأت

58 - Fruile langue, Récit de kabylie, p.289.

لمحمد مبارك (صالح دائرة أو مال) أنه سيصبح سلطانا للمسلمين وأن هذا اليوم لن يتأخر[59]، ثم اختفت دون أن تشكل خطرا على السلطة.

وينتصب فوق جبل بوزكزة، هذا الجبل الجميل الذي يرى عنه خليج الجزائر قبر لالة تمسكيدة، وهي صالحة مشهورة جدا تقصدها النساء المشتكيات من العقم يطلبن خصوبتها[60]. وكان في الجزائر (العاصمة) نفسها منذ القديم قبور عدة صالحات، كما أشرنا سابقا إلى مسجد ستي مريم الذي كان موجودا قرب الباب القديم للوافد[61]. ويمكن أن نضيف إليها ضريح لالة تسعديت صالحة قبايلية دفينة باب عزون، لكن قبرها اختفى منذ مدة طويلة[62]، واقتضى مرور السكة الحديدية بالجزائر العاصمة تدمير قبة سيدي بلال حيث كانت تجري عين ماء ينسبها زنوج الجزائر إلى لالة إما حوا[63]. وكان هذا المكان ملتقى سنويا كل شهر ماي لتخليد الزنوج «عيد الفول»، وكانت لالة إما حوا بطبيعة الحال تحافظ على عادات قديمة للمحافظة على عيون الماء.

وتوجد نافورة الجن على طريق باب الواد تسمى سبع عيون مازالت محج الناس كل يوم أربعاء حيث تقدم لها الهدايا دون أن يكون هناك أي ضريح صالح مخصص لمثل هذه المعتقدات «الجاهلية»[64]، كما أن هناك لا لة إما حلولة التي ليست سوى جنية البحيرة التي ارتدت لباس الصالحة[65].

59 - G. Bourjade, Notes chronologiques pour servir à l'histoire de l'occupation française dans la région d'aumale, in Rev. afr X X XII, 3 trim,1888, n° 190, p. 270 -271.

وهو عمل هام يستن إلى عدة تقارير رسمية.

60 - F. A .S .C .R de la 10 ses, Congré d'agadir, 1881, p 1104 – 1105.

61 - Sapra, p, 42 et 70.

62 - Devoulx, Edifices .... de l'ouc Alger, in Rev afr. XIII ann .n° 74, 1869, p 131.

63 - Trumelet, Algérie légendaire, p 360.

64 - وقد كانت هذه الهدايا موضوع كتابات كثيرة أنظر مثلا.
P. jesse Algérie et de 1874, p CIII

65 - Trumelet, Alg. lég. p.381, Seq

والربط بين قبور الصلحاء وعيون الماء والأشجار مسألة شائعة في إفريقيا الشمالية، وعندما يحكي الأهالي أن زيتونة ظهرت أو نبتت فجأة قرب قبر صالحة أولاد كَاسم (عين مليلة) نكون متأكدين أن العكس هو الذي حصل وأن زيارة الصالحة هي التي جلبت معها الاهتمام بالشجرة[66].

13 - خصائص هذه الأساطير

ولا شيء يوضح تغلغل زيارة الصلحاء عند البرابرة المقيمين أكثر من العدد الهائل للصلحاء المدفونين في بعض البلدان» فجبل بني صلاح (قرب البليدة) «غني» بالصلحاء، وكذلك مصلى لالة إما تيفلوت حيث نجد جامعا يقال إنه صالحة مجهولة جعلت بني صالح يتفقون على تسميتها : لالة تاوريرت «سيدة التل»[67]. وكذلك حوويطة لالة إما مغيتة وسط مقبرة لالة إما واسعة على الضفة اليسرى لواد الكَطران وشجرة بلوط مقام لالة إما ميمن على الضفة اليسرى لواد بني غرا[68]»، كما نشير أيضا في التل الجزائري إلى لالة ستي وهي ولية مقدرة كثيرا في تلمسان تحدثنا عنها سابقا، ولالة مغنية التي أعطي اسمها إلى المدينة الصغيرة المعروفة جدا على الحدود المغربية وعلى بعد 25 كلم من وجدة، وهما محترمتان ومقدرتان معا.وتشكل قببهما محجا أو مزارا سنويا وتقدم لهما أكبر «الوعدات» (الهدايا) .

ومازالت لالة مغنية أكثر زيارة من لالة ستي، ومازالت تحكى عنها عدة كرامات، فقد كانت جميلة وعالمة وورعة ومازال عقبها لحد

66 - A. Robert, Fanatisme. et légendes locales, in Rev, alg. XIII .2°l'sem N°14, 438, 439.CI : Lalla Goboucha .(?) Signale par, E. Reclus, Géog. t.XI, p. 737, d'après Arthur, Marocco and the Moors.

67 - يضاف هذا المثال إلى ما رأيناه سابقا.

68 - Trumelet : Saints de l'islam, p.307.

الآن في البلاد[69]، وتحظى الصلحات أيضا في المغرب باحترام كبير، واثنثان منهما أكثر شهرة عند الزوار الذين ينتقلون بين فاس العرائش، وهما لالة منانة المصباحية سيدة العرائش الموجود ضريحها في الحدائق الجنوبية للمدينة[70]، ولالة ميمونة تاكَناوت الموجود ضريحها على واد الدرادر في طريق فاس.[71]

ونجد أيضا عند الشعوب أو التجمعات الصحراوية أيضا زيارة الوليات، مثل لالة صفية سيدة قصر عين الصفيصيفة وجدة أولاد نهار، وهي خالة الولي الشهير سيدي الشيخ ولم يبق عقبها منشقا فقط بل عدوا لأولاد الشيخ الحقيقيين.[72] وتوجد القناطسة في الصحراء الوهرانية المغربية قبة لالة عائشة بنت الشيخ[73]. ويوجد عند الصلحات بتوات أيضا أضرحة مثل لالة عورا المدفونة بتاسفاوت[74] ولالة رابحة بأوكَروت.[75]

وقد قدم كَولد زهير نموذجا موحدا لكرامات الصلحات في شخص الست نفسية آخر بنت للحسن وزوجة ابن الإمام جعفر الصادق[76]، ونورد هنا «أسطورة» صالحة لشخصية غريبة شيئا ما لكن مشهورة جدا في المغرب، وهي «السيدة الفاضلة الجليلة الكاملة الولية المجذوبة القوية أم عبد الله عائشة بنت سيدي محمد بن عبد الله معْنْ. قال في المقصد: فتح لها على يد أخيها سيد أحمد سنة ست وستين وألف، وهي أول من فتح على يديه، نزل بها جذب عظيم، ووارد

---

69 - L. Provençal, op.Piexe, Algérie éd, de 1874, p.264.
70 - Rohls, mein erster aufentholt in morokko, p.367.
71 - De la Martiniére, Marocco, p. 408.

72 - أنظر شجرة نسب أولاد سيد الشيخ في
La Mart. Et lac, Document in fine, ci. Rinn, Marabouts et Khoudn p . 352
73 - De la Mart, et lac, Documents, II p 625.
74 - De la Mart, et lac, Documents, IV, 174,n
75- De la Mart, et lac, Documents. IIIp.281.
76 - Goldziher, A muh, Stid, II, p.303304-.

جسيم وحال قوي أخذها عن نفسها ،واقتطعها عن حسها. قال: وأذنت لبعلها أن يتزوج ، وخيرته بين ذلك أو يصبر على حالها، وطلبت منه المعذرة، وخرجت من مالها كله وأنفقته في سبيل الله، وفرقته في أقاربها وذوي رحمها، ولم تبق منه قليلا ولا كثيرا، وشكاها زوجها في ذلك إلى سيدي قاسم، فقال له : أي شيء أصنع لها؟ إنها كمن اشتعلت فيه النار وعلقت بثيابه فجعل يلقيها عنه من غير اختيار، يريد أن نار المحبة تحرق ما علق بأصحابها من الدنيا، كما تحرق النار الحسية ما تعلق بالبدن من الثياب إذا مسته، فلا يجد صاحبها بدا من نبذه ما في يده لا بتدبيره ، وذلك بغير اختيار منه.

وكانت تميل إلى العزلة، وإذا جلست مع النساء يلقي الله عليها النعاس حتى لا تدري ما يتحدثن به وكانت شديدة المحبة لأخيها سيد محمـ [د]ن لا تقدر أن تحبس نفسها عن رؤيته، وكان أبو عبد الله سيدي محمد بن عاصم الأندلسي أولا يضيق ذرعا مما يرى من ولهها وزهدها فيه وفي زينة الدنيا، فإذا به يو م أصابه حال صعق منه وضربه مغشيا عليه فحمل ذلك بإذن سيدي أحمد وأدخل عليها الدار، فحمدت الله كثيرا إذ شاركها فيما هي فيه، واستراحت مما كانت تجده منه. توفيت رحمة الله عليها ولم تلد حينئذ، وكانت وفاتها وقت صلاة الجمعة سابع رجب عام سبعين –بتقديم السين– وألف، ودفنت من ذلك اليو م بقبة أبيها». [77]

ونجد في هذا النص الذي لا ينتمي حقيقة إلى تراجم الصلحاء وكراماتهم، وإنما لا يورد إلا الأحداث كما رآها تقع والطباع الزهدية التي كانت تعرف بها الصلحات في أدب تراجم بالمغرب، والتي تبدو في نظرهم هامة جدا، علما أن «العلم» لم يكن ممنوعا عليهن. [78]

---

77 - نشر المثاني :105-106

78 - Cf. Goldziher, muh, stud II, p 302, Mouliéras, Maroc inconnu, II p.741.

حيث توجد إشارة إلى وجود امرأة من فاس تسمى العالمية بنت سي الطيب بن كيران تعطي دروس في المنطق بمسجد الأندلس.

لكن العلماء لم يستطيعوا أن يعبروا عن رأيهم في الموضوع بصراحة وتعاملوا مع الصالحات بكثير من المجاملة والكياسة[79].

وتوجد إشارات قليلة في الكتابين الحديثي العهد المخصصين للصلحاء المغرب وهما : «نشر المثاني» السالف الذكر، وكتاب «الصفوة[80]» للصالحات من النساء، ولا يوجد في «البستان» وهو كتاب خاص بأولياء تلمسان أي إشارة إلى أي صالحة فهل يتعلق الأمر بأن «المثقفين» أقصوا تلك الإشارات قصدا؟

وكان يقال أنهم لا يسمون قط الصالحات بلالة كما يفعل العموم. وقد يحدث أحيانا أن يسموها «المرأة الصالحة»، وتكون صالحاتهم في غالب الأحيان من أقارب الصلحاء المشهورين، فعائشة مثلا أم أحمد هي بنت وزوجة عدة شخصيات ورعة[81] أو من البهلولات مثل آمنة البستيونية نسبة إلى عائلة أولاد بستيون (يبدو من الاسم أنه أوروبي). ومثل عائشة العدوية التي لها ضريح بمكناس[82]، ومثل رقية السبعية التي كانت خرساء وتتنبأ بالإشارة[83]، وتشكل تصرفاتهن الزهدية دائما المصدر القوي لسمعتهن وحظوتهن الكبيرة وهذا شأن الزاهدة ميمونة بنت عمر التي مازال ذكرها رائجا لحد الآن والزاهدة الحاجة الملوانية الشهيرة بكثرة زياراتها وتعذيبها لجسدها.

ويوجد منهن المتزوجات مثل رقية بنت سيدي محمد عبد الله[84]، وهي صالحة وزوجة أحد الصلحاء، لكن غالبا ما يتعففن بعد أن تظهر

---

79 - لا تقبل زيارة النساء في الحج الأكبر لسبع وليات سيدي عبد السلام بن مشيش.

80 - محمد الصغير بن محمد بن عبد الله الوفراني، كتاب صفوة من أنتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر.

81 - نشر المثاني: 2/38-40

82 - نشر المثاني: 184

83 - نشر المثاني: 2/394

84 - نشر المثاني: 2/220

عليهن علامات الورع كما رأينا في القصة التي أوردنا سابقا. وأخريات لم يتزوجن قط مثل زهرة بنت الولي سيدي عبد الله بن مسعود الكوش تلميذة أبيها ومنافسه في الصلاح.

وتعجز الروايات الشفوية أن تحكي لنا «كرامات» الصلحات بطريقة موحدة، ويصبح من الصعب جدا في ظروفنا أن نأخذ أدقها ولا يصبح بإمكاننا إلا أخذها عن أناس عوام لا يقرؤون ولا يكتبون. وتشكل النساء العجائز البدويات مصدرا هاما وأكثر نفعا، فهن يحتفظن بمعلومات قديمة لم يشبها أي شيء مما يكن أن يضفي عليه بعض «المثقفين» من التنقيح والتصويب والإخفاء، وأصبحت سهولة تواصلنا ونشر أو إعطاء إضافات ناتجة عن تدخلنا الحضاري في أوساط الأهالي تخفي تدريجيا المعتقدات المتبقية من ذاكرة المجتمع البربري ليحل محلها تصور إسلامي متقدم مزاحم لمجموعة من هذه المعتقدات.

14 - صالحات تتعاطى الدعارة

وتقدم لنا رغم ذلك المعتقدات المحلية الصالحات كما أنهن كانت لهن حيوات مخالفة للزهد، وأنهن كن يزنين بطريقة منتظمة ومتواصلة، ولم نرد مقاربة هذا الموضوع من زاوية «الفساد المقدس» ولكن هذه نقطة من الواجب التأكيد عليها. ومن أوضح الأمثلة على هذه النوع من الحكايات هو حالة لالة تافولت التي سبق أن أشرنا إليها، فبعد أن عاشت حياة زاهدة تبدلت فجأة إلى تهييج مرضاها أو زوارها. وكانت تجلس على جانب كوخها تغزل من غير صوف مغنية أغنية غريبة، وقد أعجب جمالها كل المارة إلى درجة الاستفزاز.[85]

85 - Trumelet, Saints de l'islam, p.815 Sep.

ويوجد في المغرب ضريح صالحة غير بعيد من آسفي معروفة بوفائها ونذر نفسها للمارة[86]. ويوجد على الطريق بين مكناس وفاس قبر لالة عائشة تستضيف الضيوف في الظروف نفسها[87]، وكذلك الأمر بالنسبة لفتاة «جالبة للفرح» تسمى البهجة ألحقها أحد الصلحاء المرضيين وأفرق دم من الساقية الحمراء إلى طريق الولاية[88]. وتعرف قبيلة أولاد النايل وهي قبيلة صلحاء منحدرين من ولي شهير قادم من سوس في نهاية القرن السادس عشر بمغادرة فتياتها بمجرد البلوغ منازل أهليهن والذهاب إلى المدينة «لبيع» جمالهن من أجل التزوج.

والصلحاء الموجودون تحت نفوذها اليوم ينفون، ذلك ويقولون بأن شباب أولاد النايل الذين يزنون هم من فئات سفلى، لكن الثابت أن هذا التصرف كان منذ القديم ومازال مستمرا ولا يثير أي سوء احترام بالنسبة للذين يمارسونه. ومازال باقي الأهالي بمختلف مستوياتهم يتزوجون النساء اللواتي سبق أن سجلت عليهن خيانات زوجية علما أن أولاد النايل يعدون من الصلحاء، وكافة الأهالي يتعاملون معهم على هذا الأساس[89].

وتطلق النساء أحيانا في أولاد عبدي بالأوراس يتعاطين الدعارة بين أزواجهن، ولا يغادرن بيوت آبائهن الذين لا يجدون أي مانع لتصرفاتهن. ولما حاولت السلطات الإدارية «تقنين» الدعارة عارضها

86 - Chenier : Maroc, III, p.152.
87 - De la Martinière, Marocoo. p. 361.
88 - Féraud : Les béni djellab, in Rev, of XXIII ...., 134, mars -Avril 1879, p265
89 - Trumelet Algérie légendaire.

حيث يورد سيرة سيدي النايل وخاصة مغامراته الزوجية وقد ازداد أحد بنائه سيدي مالك من زوجته شليحة قبل عودته بقليل من الحج حيث قضى فيه سنتان ونصف، ورغم أن المسلمين يعتقدون بإمكانية بقاء الجنين في بطن أمه مدة أطول وضل الانتساب لمالك أمرا مثار شك لحد الآن، وحتى عندما يريد بعض الناس سب أتباع سيدي النايل يخاطبونهم بأولاد مالك علما أنه صاحب كرامات وخوارق.

الناس هنا بدعوى أن هذا التصرف يؤثر على غزارة المنتوجات[90]، فيبدو أن هناك بركة مرتبطة بالدعارة.

15 - حريات النساء الصالحات

وفي الوقت الذي يتمتع فيها الصلحاء بمعاشرة النساء وهذه حظوة محروم منها (باقي المسلمين) فإن الصالحات يسمحن لأنفسهن بمعاشرة الرجال أيضا وهو شيء محرم على غيرهن[91]، ونساء الغنانمة مشهورات بهذه الأشياء في كل الغرب الجزائري وهم قبيلة كبيرة: تعيش بواد الساورة ولهم عادات تبدو غريبة جدا[92]، ويعتبر بعضهم أنهم ينحدرون من سيدي احمد بن يوسف لكن لا يوجد أي سبب لتصديق هذا الإدعاء. ومهما يكن فإنهم معدودون من خدام ولي مليانة الشهير. ونساؤهم متعلقات بهذا الولي بشكل غريب وخاص،فهن «يحججن» إلى مليانة حاظيات في كل القرى التي يمرون بها بكرم وتعامل خاص. وقد استطعنا في وهران- بإرشاد من موليراس- أن نشاهدهن يدخلن إلى المقاهي العربية يحدثن الرجال ويمزحن معهن ويقلقوهم بدلالهن وودهن من أجل أن يخرجن من جيوبهم بعض النقود، ولا يجد الرجال ما يقولونه باستثناء أن تصرفات تلك النسوة ليست محط شبهات. ولكن إذا سايرنا رأينا الشخصي فلا يمكننا إلا أن نكون موافقين رأيهم ونتبعهم فيما ذهبوا إليه.

---

90 - Seddik (alias, A Robert) …., habitudes usages et coutumes arabes, in Rev, olg XIII, 2 Sem, N° 20.18 nov1899, p.628 -629.

91 - أنظر عند Béchade chasse en Algérie بعض الصالحات عن الصالحة الزهرة، ص 209 نود هنا أن نذكر هذا الكتاب لأن الكاتب كان دائما شاهدا حقيقيا على ما يروي.

92 - ويوجد لغنانمة أيضا في القبيلة الكبرى للحيانية:
De la Mart. et lac document, II, p 708.

16 - صالحات بلباس الرجال

وقد أثار موليراس مؤخرا الاهتمام إلى الصالحات اللواتي يتجولن حاليا بالجزائر مرتديات لباس الرجال[93]، وأشار إلى الحوار الهام الذي دار بينه وبين إحداهن. وقد استطعنا الحصول من مصادر رسمية[94] على معلومات تؤكد تماما ما ذهب إليه أستاذ وهران. فقد تميزت الفتاة الذهبة الفلاحة التي تبلغ من العمر حوالي تسع عشرة سنة التي لا مال لها ولا نفوذ منذ أن كان لها من العمر أربع عشرة سنة، فقد كانت تحضر إلى كل الوعدات وتقوم برقصات «الجذبات»، ثم أعلنت بعد ذلك أنها درويشة فساحت في كل الناحية ،ويعود أصلها إلى سجرارة (جماعة مختلطة من لهليل)، تسكن حاليا مسكرة مع مقدمها قدور ولد محمد شاب قوي يبلغ من العمر خمسا وعشرين سنة، فهي ترتدي يوميا ثياب الرجال تقريبا مكونة من «كَندورتين» و«برنوسين» و«شاشيتين» و«كنبوش» (نوع من الحلاقة) تمشي حافية القدمين، وتقول بأنها من خدام سيدي عبد القادر الجيلاني[95].

ومن المحتمل كثيرا أن نجد نساء من الأهالي ترتدين لباس الرجال، ذلك أنه يوجد أحد زعماء قبائل الجنوب الجزائري «ينزه» (من النزهة) سنويا بنته البالغة من العمر حوالي خمس عشرة سنة في شوارع الجزائر ويتركها تجلس معه على أرصفة المقاهي مرتدية بذلة رجالية غالية. وقد حكى الشيء نفسه عن إحدى بنات موظف بدائرة «جريفيل» ولا يوجد هنا في كلتا الحالتين أي عنصر للصلاح رغم أن

---

93 - Mouliéras, Hagiologie magrébine, in bull, Soc, Géog. Oran XXII t.XIV, ...LXXX, avril- juin 1899, p.3755.

94 - من الواجب علينا هنا شكر السيد Chambige متصرف مكلف بشؤون الأهالي بمقاطعة وهران على المعلومات القيمة التي أمدنا بها.

95 - أخذت هذه المعلومات من تقارير، MM, Ximenès. Et Bouaffos متصرفان في الجماعة المختلطة لبسكرة وللتفصيل أكثر أنظر موليراس.

هاتين الفتاتين الصغيرتين تمتطيان الخيل وتلعبان الفانتازيا (التبوريدة) وتحفظان القرآن. وقد أخبرنا بوجود صالحة بتلمسان ترتدي لباس الرجال لكن دون أي توضيح آخر. وهناك امرأة تسمى لالة تركية تركب الخيل وتحرث الأرض تلقب بلقب ذكوري: «بن طريق» وتلبس لباس الرجال[96]. تسكن عند أخيها بدوار العوايد بقبيلة المعاصيم (جماعة مختلطة لعمي موسى) وتوجد امرأة أخرى من القبيلة نفسها تسكن بدوار صفرة تقوم بالتصرفات نفسها وترتدي دائما برنوسين و«عباية» وتجمع شعر رأسها ب «الخيط». وتوجد امرأة ثالثة بأولاد عمار (جماعة مختلطة من الورسنيس) تسمى الضاوية متفوقة في جميع التداريب الرياضية ويبدو أنها تأتي كل سنة لتحضر الطعام لسيدي رباح (عمي موسى) حيث تكون متحمسة أكثر للمشاركة في حفلات التبوريدة، وهؤلاء النسوة الثلاث لم يتزوجن قط ولا تشوب سيرتهن شائبة، وتأكد أنهن ليس لهن أي علامة صلاح، لكن الأهالي لا يقولون هذه الأشياء إلا بصعوبة أمام شخصيات لها طابع رسمي، ويبدو لنا من الاحتياط أن لا نتحدث في هذا الموضوع .نضيف في الأخير أننا نجد في «أساطير الصالحات تاريخ الوليات اللواتي يلبسن لباس الرجال مثل هذه الشهيرة المدعوة: لالة عودة بنت سيدي محمد بن علي البهلول[97]» التي تضيف إلى حسنها، الفتان علمها الواسع وطريقة لباسها الذكوري من أجل إخفاء عفتها وشجاعتها[98].

---

96 - هذه المعلومة والتي تليها بخصوص النساء اللواتي يلبسن لباس الرجال قد مدنا بها M.vauthier وهو متصرف مساعد بالجماعة المختلطة لعمي موسى.

97 - Trumelet : Algérie légendaire, p.249.

98 - يوجد حسب موليراس Hag. Mag loc.cit, p 376 بعض الصلحاء الذين يرتدون لباس النساء، ونذكر أن هناك ي الصلحاء من له شعر طويل مثل النساء، وهكذا كان سيدي التاج جد الولي الشهير بوعمامة (CF. De la mart et lac Document II, p: 320) ونشير في نهاية هذه الفقرة أن الزوايا المدينية تقبل أن يكون النساء من أتباعها، ويشر ديبون وكوبولاني: Les confréries, p .215 إلى وجود 27000 امرأة من أتباع الزوايا في الجزائر وحدها.

الفصل السادس

طائفة الصلحاء

سبق أن أشرنا أن الصلحاء يشكلون في لقبايل طائفة ذات حظوة وهم السلطة الوحيدة التي يحترمونها، ولا تسمح لهم العادات أيضا بأن يأخذوا حقوقا فعلية، ولا يحظون إلا بالاحترام المخصص لهم ولا يختلطون إلا نادرا بالعموم ما داموا لا يتزاوجون عموما إلا فيما بينهم، ومن النادر أن يصبحوا زعماء سياسيين[1]. وهكذا فإن ما هو نادر في لقبايل أصبح في غيرها هو القاعدة.

وسبق أن أشرنا إلى التيوقراطية الغريبة عند مْزاب[2]، لكن الذي يتعلق بالعباديين فخاص جدا بهم، ولا يمكن مقارنته بباقي أشكال الصلاح في إفريقيا الشمالية. ويشكل أولاد سيدي الشيخ المثال الأوضح والأشهر للصلاح الذي هيمن على السلطة السياسية ،كما نجد في الغرب حالات مشابهة وهامة جدا. ولا نفعل هنا شيئا سوى ذكر الدول التي أسسها صلحاء، مثل سيدي بن داود سيد تادلة أو مثل «مملكة» تازروالت التي يحكمها حاليا حفيد سيدي احماد أو موسى[3] والتي تبدو في الخرائط باسم «مملكة سيدي هاشم».

---

1 - Masque Ray : Formation des cités chez les populations Sédentaires. P127128-.

2 - Masque Ray, op land, p173 sep

حيث يجد في الترجمة الثالثة عشرة إشارة على مصادر معلوماتنا الأخرى عن المجتمع لمزابي.

3 - أنظر بخصوص تازروالت: Timbouctou, trad.,Le haut court, I chap XI p.341 Seq

ويعتبر لينيكس ملاحظا جيدا، ومن المؤسف جدا أنهم لم يكن مهيمنا جدا في المنظور

وترتبط دراسة الدور السياسي للصلحاء في شمال إفريقيا بالتنظيم الاجتماعي لأهالينا لنخرج نهائيا من الإطار الضيق الذي سطرناه، ولنتفق على القول إن الصلحاء بالمغرب عموما يوجدون في الوضعية نفسها التي يوجدون عليها في لقبايل باستثناء أنهم يشكلون طائفة مغلقة.

1 - الاحترام الذي يخص به الصلحاء

ويختلف الاحترام الذي يخصون به من بلد لآخر، باستثناء الطوارق - رغم الدور الهام الذي لهم في المجتمع عند غيرهم - خاصة أنهم متدينون قليلا[4]. وتتحمل فخذات الصلاح تماما بتيدلكت السلطة السياسية للرحل أكثر من باقي المناطق الأخرى ،ويقبلون بمختلف التصرفات بما في ذلك المهينة. وتوصلوا بسلوكهم هذا إلى أن انتزعوا استقلالا مبنيا على الاحترام ،لكن أيضا على اللااهتمام واللامبالاة وهكذا فإن وضعيتهم السياسية أقل من وضعيتهم الاجتماعية عند الأهالي، علما أن بعضهم من أولاد الحاج المعروفين بسمعتهم العلمية وأولاد بلقاسم المعروفين بالثراء يحضون بوضع متقدم. ولا يمكن أن نعتبرهم أنهم يكونون فئة دينية غنية. فهم ليسو سوى صلحاء مقبولين ومحترمين[5]، وتأثير الصلحاء عند القبائل الصحراوية القليلة التدين مثل الحميان يبدو منعدما تقريبا.[6]

الإسلامي لأن له تكوينا علميا، أنظر أيضا بخصوص تازروالت أنظر بخصوص أولاد احمد أو موسى: Cf. Quedenfeldt in verhandl, anthr. Ges – 1889.p p 2572 sep

4 - Duveynier, Touareg du Nord , p 332.333 cf De Foucauld, Reconnaissance;p.12

5 - Le chatelier, In salah, in Bull, corr, 1885, fasc.V. .VI p.430431-

وهو عمل هام جدا مصدره رواية شفوية تقادمت لكن مازالت لها قيمة كبيرة.

6 - De la Mart, et loc, document, II p 249.

وهناك مثال أخر مشابه عند دوي بلال in de foucauld, Rec, Loc .cit

2 - الدور الاجتماعي للصلحاء

ولكن هنا استثناءات، حيث يمكن القول إن كل قبائل شمال إفريقيا توجد عموما تحت نفوذ مجموعة صلحاء محترمين ومقدرين اجتماعيا.

3 - صلحاء يقومون بدور العدالة

وهذا الاحترام شرعي جدا ذلك أن هؤلاء الصلحاء يعتبرهم العموم محسنين حقيقيين، ويتدخلون عندما تتصارع القبائل الجزائرية والتونسية وعندما تكون هناك فوضى بين القبائل المغربية، وفي أوساط الحروب المتواصلة من منطقة إلى أخرى، ووسط الصراعات الدائمة للمصالح التي لم تستطع أي سلطة تسويتها ووسط الجهل العام وكثرة المرضى، فهم يمثلون الصلح والعدل والتسامح، وحيادهم المعتاد وسط النزاعات اليومية، ولهذا يتدخلون حيث يسعفهم علمهم من فض صراعات المصالح، ووقارهم يضمن لهم احترام قراراتهم[7] ويستطيعون في الأخير إدخال بعض التعاليم الدينية إلى العقول «المتحجرة» لهؤلاء البرابرة الذين مازالوا يحتكرون التعاليم الإسلامية وهذا العلم «الأصيل» الذي يبدو لنا يعتبر عند العموم مصدرا هاما للتقدم الأخلاقي[8]، وشكلت الزوايا معقلا مكملا لهذا التكوين حيث

7 - Cf. Masque Ray : Formation des cités etc, p. 120,170- 171 et le djebel chechar in Rev. afr XII, mars –avril ,1878, p. 134 -135 et mai –juin n° 129. p.213 Trumelet, Saint de l'islam, p. XIIX

8 - يستحق التعليم الإسلامي في شمال أفريقيا بحثا خاصا. وتوجد عناصر الموضوع في كتابات دلفين ومولييراس، وقد درس الباحث الأخير المسألة خصوصا في فاس. وأنظر العمل العام الذي أنجزه ريبوا عن التعليم الإسلامي بإسبانيا، يقول المغاربة «ولد ولدك شيخا لا تولده غندورا».
وكذلك قولهم من لا شيخ له فشيخه الشيطان Moulièras, Maroc inconnu, III / 715.

تشكل مدارس لتلقين علوم القرآن ونزلا يقيم فيه الفقراء والمسافرون بدون مقابل[9]، وملجأ لا يمس فيه المضطهدون[10].

واتخاذ صالح ما حكما تصرف عام عند جميع الأهالي بالمغرب فوظائف الصالح أحيانا تكون محرجة جدا، لأن سلسلة من القرارات غير الصائبة التي يمكن أن تمس بسوء بعض العائلات القوية قد تؤثر على حظوة الولي.

ولا يصدر الصالح الحكم إلا بعد استنفاد جميع محاولات الصلح، وعندما يحكم حكما أخيرا على الجميع الانضباط والقبول وإذا احتج المحكوم عليه يتظاهر الولي بعدم السماع[11].

والخدمات التي يقدمها الصلحاء غير محدودة، وتركت في كتب أخبار الأولياء عدة علامات. وحتى لا نذكر سوى إحدى كرامات سيدي عمار جد أولاد خرفان من أولاد عطية قرب كولو، حيث يحكى عنه أنه بعد سرقة أحد الخرفان تقدم السارق والمسروق أمامه ،ثم قام سيدي عمار ولمس بيده رأس المتهم فشرع يثغو كما تفعل الخرفان ثم اعترف بالمنسوب إليه. ومن تم أصبح يعرف «صالح الخرفان» و حملت فخذته من ثمة هذا الاسم[12]، وفي الدوائر أو المقاطعات الجزائرية حيث يوجد قاض، يشكل الصالح منافسا له، ويفضل الأهالي فك نزاعاتهم أمام صالح أكثر من المثول أمام قاض، ويحدث أحيانا أن يشتكي من هذا الوضع ممثل القضاء، وهذا ما يفسر الصراع الذي دار منذ سنوات بين

---

9 - أنظر بخصوص ضيافة الزوايا : محمد بن رحال: «عبر بني يزناسن» وفوكو وموليراس وديبون وكوبولاني.

10 - Cf : Goldziher, Muh, St.. II 314, Thomson, Travels in the Atlas and southern Morocco, a narrative of exploration 1 vol. Londres 1889. p.107Harris, Tafilet p. 43, Erckman. Maroc Moderne, p. 98. de la Martinière . Morocco. p. 129

11 - Cf Hanoteau et Letourneux. kabylie III p.11

12- Faraud : Notes pour Service l'histoire de Philippe ville in Rev. afr XIX, mars –avril ,1885. n°110.p.101

صالح بوتليليس بضواحي وهران وقاضي عين تموشنت، حيث وجد الأهالي الحكم الأول أقل ضررا وأكثر تسرعا فتركوه وقصدوا الزاوية.

ولا يقدم الصلحاء خدماتهم التحكيمية للأهالي فقط بل يحدث أحيانا أن دخل معمر في نزاع مع أحد الفلاحين من الأهالي ولم يكن من الأول سوى الانضباط لحكم الصالح.

وقد ساهم بوتليليس أحيانا في تهدئة الأوضاع بين الفرنسيين والمسلمين .وكان بوسيف صالح بني صاف الذي ذكرناه سابقا يعدل بين الأهالي والأوروبيين[13]، وكان الشيخ بن طقوق الذي أسس أواسط القرن التاسع عشر زاوية معروفة في الدائرة الحالية للجماعة المختلطة لهليل والذي يبلغ من العمر مائة وثلاث سنوات حاليا، يتمتع بحظوة كبيرة في قسم كبير من جهة وهران بل أيضا في الجزائر (العاصمة)[14]. ولم تعرف فقط التجمعات المسلمة تدخل الشيخ بل كذلك معمري عين بوتليليس و«المنظر الجميل» وبلاد التوارية وعين سيدي الشريف وسيرت وبوكيرات حيث لجأت إليه في نزاعاته مع الأهالي حول الممتلكات أو سرقات الحيوانات.[15]

4 - صلحاء متسترون عن مسروقات

ومن أجل هذه الأسباب يلجأ أحيانا المعمرون إلى الصلحاء الذين يعدون «بشارة» محنكين، لكن يجب القول إنهم يميلون أحيانا كثيرة إلى اللصوص. صحيح أن مؤسسة البشارة ظلت في بلد إسلامي مثل الجزائر ولزمن طويل مؤسسة هامة ما دام الوضع غير مستقر، وكذلك الأمر بالنسبة للمغرب. ولكن يجب الاعتراف مع الأسف أن

13 - Moulièras, Maroc inconnu, II , 183.

14 - معلومات مصدرها إداري.

15 - أنظر بخصوص بن طقوق وزاويته المعلومات الهامة التي قدمها.
Depont et Coppolani, Confréries musulmanes, p.565.

المعمر الفرنسي يجد مرات عديدة البشارة سريعة وفعالة وأقل خطورة من القانون الجنائي الذي يسهر ممثلو القضاء على تطبيقه، ويفضلون أن يدخلوا شركاء في القطيع من أن يسرق منهم، وأن يدفعوا بعض النقود أفضل من أن ينتظروا بطء آلتنا القانونية والشروع في معلومة أو إجراء نتائجه تكون دائما إشكالية ومحط نقاش[16]. وكل من اشتغل في سلك الشرطة عند الأهالي يعرف أن الصلحاء كانوا يقومون بمهمة «البشار»، وبعضهم يتعدى ذلك ويضيف إلى مهمته مهمة مخفي الأشياء المسروقة أو الحيوانات المسروقة، وقد رأينا أن هناك زوايا تقوم أساسا على سرقات « البشار»[17] ومازال مع كامل الأسف لحد الآن من يقوم بالشيء نفسه.

5 - صلحاء لصوص مطاردون

لا يوجد فرق كبير بين «الكمّان» (مخفي المسروق) والسارق، فالوضع كان مشابها في العصور الوسطى في إفريقيا الشمالية وخاصة بالمغرب حيث كان الصلحاء لصوصا منهم : سيدي عبيد بالنمامشة الذي كان قاطع طريق كبير[18]، وكذلك الشريف سيدي لمقانط الوزاني أحد شرفاء وزان وزعيم شيخ زاوية في قبيلة فناسة (جبالة المغرب) لص في الطريق الكبير[19] كما أن مولاي علي شقور أحد أكبر صلحاء

16 - أنظر بخصوص البشارة، مقالا جيدا.
Mercier, In union Islamique, Caire, 1897,n°1 p.7. cf Sec Moulièras, Maroc inconnu, II , 363

17 - ونضرب لذلك مثالا واحدا بزاوية بني بغريش وزاوية سيدي إدريس في جبال سيدي إدريس بين قسنطينة والبحر.
Cf, Féraud, Notes pour servir à l'histoire de Philippe ville in Rev . afr XIV, mars –avril .1875. n°103.p.104

18 - Cf, Féraud, Notes sur tebessa, in Rev, of XVIII, n° 108. novembre – décembre 1874, p 466- 467.

19 - Moulièras, Maroc inconnu, II, p. 379

الشاون مازال حيا لحد الآن كان قديما قاطع طريق كبير[20]. كما أن قبيلة بني احمد السّراق (اللصوص) تعد إحدى أكثر القبائل صلحاء[21]، ورغم ذلك فإنها تستحق هذا الاسم لأنهم ما فتئوا يطلبون فدية للمارين من مجالهم[22].

ويشير هانتون إلى أن هذه القبائل استثناء خاصة أن العديد من الصلحاء يطردون اللصوص الذين ينازعون بركتهم[23]، وأشهر هؤلاء في هذا الاتجاه الشيخ مولاي زيان مؤسس زاوية قنادسة، (بواد كَير بأقصى الجنوب الوهراني المغربي) حيث قضى طول حياته يسخر بركته في طرد اللصوص الذين مازالوا منتشرين في كل الصحراء وفي أحد الأيام بينما كان الولي يصلي في المسجد تجرأ اللصوص على الاستيلاء على قطعانه التي أهداها إليه أتباعه لكن الله تكلف بطردهم ذلك أن الخضير تقدم في صفه مولاي زيان الذي يصلي في المسجد فضربهم بعصاه وماتوا فجأة. وكان الرعاة الذين تبعوهم شهودا على هذه الكرامة وأعادوا القطعان إلى الشيخ الذي لم يغادر المسجد إلى أن فرغ من الصلاة وشرع في تدريس أتباعه[24]. ومنذ ذلك الوقت لم يعد أحد يستطيع أن يجرأ على السطو على القطعان والقوافل الموجودة في حمى صلحاء القنادسة، وكذلك القصر نفسه الذي تحفظه «بركة» أجدادهم ليس له باب ولا سور حماية[25].

---

20 - Moulièras Maroc inconnu, II p.375seq

21 - Id. II. P.133

22 - Cf. Suppra.p.8

23 - Moulièras : Maroc in connu, II, p.765

24 - لا ينجحون دائما في المهمة وقد يكونون هم أنفسهم ضحايا، أنظر مثلا بخصوص عدم أمن وزان:

Moulièras, Morocco p 128231-, da la Mart et lac, Document I p. 375, 408, 438.

Moulièras land, II p.469, in de la Mart et lac, op Land, II p.388.

25 - wimpffen , de La Mart,et lac . Documents p .622- 8

6 - لصوص صلحاء حماة المسافرين

كما أن موارد صلحاء لقنداسة تتكون من الإتاوات التي تؤديها القبائل من أجل ضمان سلامة مرورها حيث أسسوا عرفا دينيا يتكلف بموجبه الزيانية بتأمين رحلات تلك القوافل. وكان هؤلاء الزيانية قديما كثرا، وكان أحد ممثلي الطائفة حسب الجنرال ويمفمبان «يفرض» واجبا نقديا على كل قافلة من أجل ضمان سلامتها ما بين الغرب الجزائري ووسط إفريقيا[26]، وقد أثر توقف تجارة العبيد كثيرا على مداخيل الزيانية لكنهم مازالوا يعيشون من دورهم الحمائي.

ولا يمكن في المغرب حاليا أن تنتقل من قبيلة إلى أخرى دون «زطاط» أي حارس القافلة إلا بمقابل، وبمجرد أن يوصلك إلى القبيلة الأخرى يتسلم المهمة «زطاط» آخر، وهكذا دواليك.[27] ويجلب الزطاطة مداخيل كثيرة إلى العديد من الصلحاء باعتبار أن الاحترام الذي يحيطون به كفيل بضمان أمان المسافرين.[28] وقد أصبحت الزطاطة في المغرب مؤسسة حقيقية لا يمكن بدونها السفر، والصلحاء الذين يمارسونها تتضاعف مداخيلهم وهذا تصرف قديم حيث قال ليون الأفريقي بأنه إذا أراد أحد لأشخاص الذهاب من مكان إلى آخر يجب أن يأخذ معه حراسا من أهل الدين أو امرأة من القبيلة المعادية (أي القبيلة المجاورة عموما العدوة التي سيعبرها).

7- الصلحاء والتجارة

ولا يتكلف الصلحاء بتأمين القوافل وتسيير تحركاتها، فقد يكون لهم أنفسهم مصالح تجارية كبيرة وهكذا كان واقع الزيانية الذين أشرنا

26 - De wimpffen, Loc. Cit ,627
27 - De Foucauld : *Reconnaissance*, p.7 n CF, p 130 Sep. Moulièras, Maroc inconnu : 78.
28 - De Foucauld, *Reconnaissance*, p.51

إليهم أعلاه، كما كان أهل فخذه أولاد سيدي محمد بن أحمد المجاورة لبني كَيل (أقصى الجنوب الوهراني المغربي) معروفين بكونهم تجارا محنكين وذوي خبرة[29]، حيث كانوا يصلون إلى سوق لالة مغنية، كما كانت أضرحة بعض الصلحاء تستخدم مستودعات للسلع .خاصة أننا نعلم أن هذه الأماكن محترمة جدا ولا يمكن أن تكون فيها أي سرقة رغم أن أغلبها ليس بها حارس ،ومفتوحة على الجميع وبداخلها أشياء متنوعة كالأفرشة والأدوات الموسيقية وأواني الطبخ وبعض المؤن، دون أن يجرأ أحد على سرقتها، وهكذا كان الصالح سيدي خالد قرب دليس يستعمل لمثل هذه الأغراض وكان الديلسيون يأتون إليه بواسطة الزوارق (لأنه يوجد على شاطئ البحر) محملين بكمية من الملح ويتركونها به إلى أن ينزل قبايل الأعالي المجاورة من الجبال ليأخذوا الملح ويضعوا في مقابله الشعير أو القمح، ثم يأتي الديلسيون بعد ذلك لأخذها بدورهم[30].

وتوجد وسط الصحراء على ضفة واد مية قبة سيدي عبد الحكيم مليئة بالحبوب والثمار والأواني والمناديل التي وضعها بعض المسافرين تقربا، ولكل واحد حق الاستفادة مما وجد أمامه والتغذي من المؤونة، لكن لا أحد لم تساوره شكوك بأنه سيعذبه الصالح بعد وفاته إن هو أساء لذلك[31].

---

29 - De la Mart et lac. Document, II p.387.

30 - Hum, Excursion dans la haute kabylie et ascension au tamgoult de la khadija par un juge d'Alger en vacance 1 vol .Alger 1859.

يتضمن بعض الملاحظات الجيدة لكن الطابع الهزلي للكتاب يجعل التعامل معه صعبا فضلا عن أراء المؤلف.

31 - De la Mart et lac, Document, IV, p.224, n.1 (Citation du journal de Route de la 2 émission of ....)

8 - الصلحاء والفلاحة والسقي والرعي

ولم يغفل الصلحاء أيضا الاهتمام بالفلاحة وتربية المواشي، قد نبه سيدي علي بوتليليس من نواحي وهران[32] إلى ضرورة عدم الإساءة إلى الحيوانات الأليفة وكان «يسخط» على السائقين الذين يعنفون ويقسون على دوابهم[33]. كما أن سيدي الحاج إبراهيم المدفون اليوم في جبل صخري مع جده سيدي محمد بن عليا قد اضطلع بمهمات خطيرة قام بها بكل تفان من مثل إزالة «البقع» للحيوانات المتوحشة ذات الشعر الأصفر كالأسود والفهود التي تصيبها الجراثيم والطفيليات.[34]

وهناك أولياء اهتموا مباشرة بالفلاحة حيث اشتغلوا إلى جانب عيون الماء بحفر الآبار. وسبق أن أشرنا أن الصلحاء كانوا مرتبطين دائما بمنابع الماء أو العيون، ويستمد بعض منهم وخاصة بالصحراء شهرتهم من الآبار التي حفروها.

وتقول الأخبار أن سيدي الشيخ لما كان مسافرا في الجهة التي يوجد بها أتباعه (حفدته) فوجد صالحا آخر يسمى سيدي عبد الكريم يحفر بئرا فقال له إنك هنا تتقرب إلى الله وما كاد ينهي كلامه حتى نبع الماء، لكن سيدي الشيخ لما طلب الماء للشرب رفض ذلك الصالح الآخر، فسخط عليه فجفت البئر، ثم استمر في رحلته فوجد أحد هم يحفر بئرا أيضا فطلب أيضا منه ماء للشرب، فقال له الحافر: يا سيدي إن البئر وماءها لك»، فقال الشيخ لما شرب إن ماءها صالح وجيد فمن

32 - لا يجب الخلط بين هذا الصالح الذي مات منذ مدة، والصالح الذي تكلمنا عنه سابقا من مسكرة والذي عاش في شعبة لحمام فالأمر لا يعدو تشابها في الأسماء.

33 - أنظر « سيرة بوتليليس في : Trumelet, Algérie légendaire, p.476 Seq

34 - Cf : Trumelet, op laud, p 229.

ويحكي بونبونبل أن صالحا دعا له من أجل قتل فهد أرعب الجهة

Bombonnel : Le tueur de panthère, ses chasses écrites par lui-même, 1vol Paris, 1860, p 138-139.

شربه عوفي، كما قالت الأخبار أيضا أن المشاجرات نشبت حول هذه البئر فجف الماء مؤقتا[35].

وعديد هم الصلحاء الذين حولوا أراض غير صالحة للزراعة إلى واحات خضراء، وأشهر مثال على ذلك من أخبار السنوسية الشائعة بين العموم حتى إنها مارست بهذا نفوذا وقوة وتأثيرا على سكان الصحراء، فمن بين أسبا ب نجاحهم ما غرسوه من أشجار مثمرة في الصحراء الليبية. حتى إنه يمكن القول إن الحضارة الأوربية لم تستطع من وجهة النظر هذه أن تكون سباقة لهذا المنهج من أجل تهيئة مستعمرات أوربية جديدة.[36]

9- دور الصلحاء في الصلح زمن الحروب

كما أن الصلحاء يحظون بعدة أشكال فضل على السكان المغاربيين، لكن أهم خدمة أدوها هي ما أشرنا إليه سابقا هو سعيهم المتكرر للصلح بين القبائل، وكانوا بذلك أكبر سلطة معترف بها ينضبط بها الجميع، وعندما يتعب الطرفان ويرفضان الرجوع ويحسان بحاجتهما إلى التوافق ويمنعهما كبرياؤهما من أن يأخذ أحدهما المبادرة[37]، أو عندما يهزم طرف الآخر ويريد سحقه وحدهم هم من يتدخل ويوقف غضب الفائز[38]، بل شوهدوا يقدمون العون إلى الأعداء الأبديين للمسلمين، فقد تدخل أحد صلحاء نواحي البليدة الذين لهم نفوذ في المنطقة ليوقف البليديين وبني صالح

35 - De La Mart, et lac, IV, p. 6667-

36 - Hartman Aus d. Religions leb, d.bid. wusste, in arch, f Rel –viss, Ip.267- 270.

37 - Cf. Mohamed ben Rahal : A travers les beni Snassen, loc cit, p 40.

38- Cf, p.ex , le chatelier, in Rev ah XXXI an ,mars 1887 n° 182 , p129.

وهو عمل لدراسة الساكنة الصحراوية رواية شفوية.

بعدما نهبوا محلات أحد اليهود[39]، كما أنهم يدعون أحيانا إلى الهدنة عندما تعلق أطوار الحرب، فقد كان الصالح الكبير ابن المبارك بآقا في سوس في القرن السادس عشر يقوم بذلك.

وللوصول إلى التمتع بهذه الدرجة من السلطة على الصلحاء أن يبقوا محايدين قدر الاستطاعة، فبينما كانت الحروب الدامية تفتك بسكان قراهم كانوا يرفضون أن ينحازوا إلى جهة دون أخرى، فقد أحرقت واحات وسالت بها الدماء سنوات عديدة بسبب الصراعات بين فخذات القبائل دون أن يتدخل الصلحاء[40] لكن لما تبيد الحرب المعسكرين وتهدد بخراب الساكنة، يتدخل الصلحاء فوق الخيول أو البغال يحملون أحيانا عراجين خضراء علامة على السلم متقدمين وسط إطلاق النيران والمتحاربين فتتوقف الحروب فجأة لأنهم شخصيات محترمة وتقبل وساطتهم[41]. وهم من يشرع في المفاوضات ويسيرون أطوارها ويحررون اتفاقيات الصلح والسلام حريصين على ضمان حقوق كل طرف متفادين أن يخلقوا لأنفسهم عداوات[42]. وقد تركت مهمة الصلح هذه عدة آثار في أخبارهم نذكر منها حالتين فقط: عندما وصل سيدي عبد الرحمان بن عبد الله بن عبد الرحمان اليعقوبي من نواحي تلمسان عند الترارة ليصلح بينهم فصاح احدهم في وجه الولي بأنه لن يصلح بينهم فأجابه «الله «يحرقك بالنار» وفجأة أصيب الرافض بحروق بليغة توفي على إثرها[43]. وعندما علم سيدي

---

39 - Trumelet, Blida, A vol, Alger, 1887, p 989.

40 - مثل قصر المعايز بأقصى الجنوب الوهراني
Cf de la Mart et lac , Document, II p 479 et n

Moulièras, Maroc inconnu II p. 290 - 41
وأنظر أيضا قصة جميلة Souvenirs et visions d'Afrique, Paris 1894 p377
لماس كاري في كتاب.

42 - Moulièras, op. laud, I, P. 313.

43 - ابن مريم : البستان ص132

محمد بن عالية جبل الصحاري الذي أشرنا إليه سابقا بأن فخذتين من صحاري أولاد إبراهيم وأولاد داود وأولاد تسابت تتصارعان لسبب تافه ألقى بنفسه وسط المحاربين وتوسل إليهم بأن يوقفوا حربهم هذه فحمل الولي صخرة من الجبل يعجز مائة رجل على حملها وهدد بأن يهشم بها رؤوسهم إن لم يتوقفوا عن صراعهم فتوقفت الفخذتان وتفرقتا لم يسحقهما الصالح ولكن ترك القسم الأكبر من الجبل ينهار وقال لهم: إن رخاءكم اندثر وسأطمره وسط هذا الركام، ومن تلك المرحلة أو الحرب وهم يعيشون حياة بئيسة.[44]

والخلاصة أن الصلحاء قد قدموا خدمات جليلة للأهالي، ودون شك، هناك من يستغل نفوذه لكن يستجيب عموما لحاجيات الناس، كما سمع ذلك عنهم في الجزائر، وسيكون من التافه الإقرار بأن اللغة التي يستعملها متحدثونا المعاصرون في النوادي اتجاه عقائدنا الأوروبية عندما يثقون في تصفيقات الناخبين أن الرهبان هم من اخترع الدين ليحكموا الشعوب.

44 - Trumelet, Algérie légendaire, p 224- 225.

خلاصات

1 - الصلاح كوسيلة للحكم

هل نستطيع الآن بعد أن أنهينا هذا البحث استخراج -من خلال الوقائع التي أسلفنا ذكرها -بعض الخلاصات الممكنة في حدود الخصاص وبالممارسة قاعدة حكم بالنسبة للمكلفين بحكم «مستعمرين» المسلمين؟ وسيكون ذلك أكثر من المجازفة، فالنقط التي جمعناها لا تمثل أولا سوى معلومات ناقصة عن مصادر معرفتنا الخاصة بالإسلام المغاربي، ثم إنها لا تلامس إلا الجوانب الصغيرة من المسألة.

ولا زلنا بحاجة إذا أردنا الوصول إلى خلاصات منطقية إلى دراسة الصلحاء الحاليين أي كراماتهم، كما يجب دراسة -وبصفة مطولة- زيارة الصلحاء من خلال الوثائق التي نتوافر عليها منذ ما قبل التاريخ لأتباع الفكر الديني البربري إلى حدود وقتنا الراهن، والبحث من خلال تفاصيل الطقوس المعاصرة، ودلالة الزيارة عند القدماء وتدقيق تحولاتها، كما يجب دراسة دور الصلحاء في التاريخ السياسي، والبحث عن أصول الطرق الصوفية في شمال إفريقيا،وكتاب التاريخ الداخلي والخارجي لكل واحدة منها من أجل الحصول على فكرة صحيحة عن علاقة الصلاح بالطرق الصوفية، وبخلاصة دراسة الإسلام المغاربي كله ما دام صحيحا أن زيارة الصلحاء أصبحت الدين كله تقريبا.

وقد سبق لأعمال هامة للمدرسة الإدارية الجزائرية أن شرعت في ذلك من خلال أعمال السيد رين و ديبون وكوبولاني. والمادة الأولية للموضوع خفية سواء في الأدب العربي أو الأدب الأوربي، وحقل الملاحظات يتسع حولنا وكذلك رمال الأطلنتي.

وفي الأخير تقدم دراسات هامة أقيمت بالخارج مثل أعمال كَولد زهير وسينوك هيركَونج وغيرها معلومات هامة يمكن أن تصلح نقط مقارنة ومعالم بحث في الوقت نفسه. ويبقى على المدرسة الجزائرية أن تشتغل وتنقل بحكمة خلاصات عملها إلى حكامنا ولا نستطيع أن ندعي بأن هذه المعلومات القليلة التي جمعناها يمكن أن تساهم إيجابا في هذه الدراسة، ولكن قد يكون من الممكن أننا نجحنا في أن نبين من خلال طريقة تحليلنا المتأنية وقائع يبدو لنا من الضروري التعاملمعها.

2 - سياسة الاحتياط أو التحفظ

والتاريخ وحده يمكن أن يمدنا بمعلومات عن خط تطور الصلحاء حيث نلاحظ في المغرب مثلا، أن السلاطين الأقوياء لم يفوتوا أي فرصة للتصالح معهم، وهكذا توجد إلى جانب الشريف الجالس على العرش في فاس قوى دينية هامة مثل شرفاء وزان[1] أو الشرفاء الأدارسة المنتشرين في كل المملكة[2]. ويستطيع صلحاء كثيرون أن يهزموه في مملكته ولا يعترفون إلا بسلطته الروحية ويكون مجبرا على التقرب

1 - هناك مثل قديم يقول بأنه لا يمكن أن يكون أي شريف وزان سلطان، كما لا يمكن لأي سلطان أن لا ستحين بشرفاء وزان
Cf. Harris, Tafilet. P 356.

2 - هناك اعتقاد شائع كثيرا في المغرب هو أن المنحدرين المباشرين من إدريس عائدون طال الزمن أم قصر إلى الحكم Harris, Tafilet, loc, cit والأدارسة كثر بالمغرب، كما يشكل العلماء ملفا ويا في فاس أغلبهم أدارسة يقطنون بجوار الصلحاء. Cf. de la mart, et. lac, document, I p 363

إليهم بكل الوسائل الممكنة[3]: الهدايا الدائمة[4] والرحلات الترفيهية، والإعفاء الضريبي.[5]

والأتراك لم يختلفوا في تعاملهم مع الأولياء عن السلاطين والأسر الحاكمة المغاربية بكسب ود الصلحاء بالهدايا[6]، ونتوفر على مراسلات بينهم وبين الحكومة التركية[7] ونرى فيها مجموعة من عبارات المجاملة ووعدهم بالهدايا التي يعرف الأولياء كيف يطلبونها[8] مع الحدة في العبارة عند الاقتضاء[9].

ولم يكونوا يفوتون أي فرصة للتعبير عن احترامهم للصلحاء ويقدمون لهم تنازلات وتضحيات[10]، ويبنون عليهم قببا[11]، ويعفونهم من الضرائب بل يتركون لهم اختصاصات سياسية حساسة وصعبة كالحق في العفو[12]، كما تروى أخبار الصلحاء كيف أنهم كانوا يطيرون

---

3 - Cf. cat. Confréries de Maroc, Loc cit p. 379 de- De Foucauld, Reconnaissance, p., 47

4 - Cf. cat. Loc. cit

فكل مرة يزور فيها السلطان زرهون وزاوية مولاي إدريس الكبير يهب 500 فرنك للمسجد كما أنه يقدم هدية سنوية. قدرها 5000 فرنك

De la Mart et lac Document, cit

5 - de Foucauld, Reconnaissance, p 385, de la Mart et lac Document I p. 430 – 431 II, 386, 634 etc.

6 - Cf. René Basset, Dictons de sidi Ahmed hen Youssouf, p .21

7 - أنظر ما نشره:

Devoulx, le has adressées par des marabouts arabes au pacha d'Alger. in Rev. afr XVIII ann, mai –juin,1874. n°105. p.171 Seq Robin Histoire de chérif ben bar'la, Trumelet, Algérie légendaire, p 224225-.

8 - أنظر أخبار سيدي عبيد في: Trumelet, Algérie légendaire, p 224-225.

9 - أنظر مثلا كيف حكم صلاح باي بالموت على الصالح سيدي محمد الغراب.

Trumelet op laud p.254. Seq . ibid.p.447 .

10 - Cf. Michel, la prise d'Alger racontée par un captif. in Rev. afr X X ann, mars – avril. 1876. n°116 . p.103

11 - Trumelet, op Laud, p 369.

12 - Cf. Bourjade, Notes chronologiques pour servir de l'occupation d'Aumale, in Rev. afr X X XII 3° trim. 1888. n°190. p.256- 257.

لنجدة الأتراك عندما تهاجمهم القوى الأخرى[13]. وقد نجحت هذه السياسة كثيرا للحكومات الإسلامية ، فقد رأينا أن الصلحاء لا يكتفون فقط بتأييدها ودعمها، ولكنهم يعملون على تغطية شطط كبار القوم والسلطان.

ولا يساورنا أي شك في دور الصلحاء في سياستنا ويكفي فقط النظر إلى مثال مولاي الطيب الوزاني و تجانيي عين ماضي ودورهم الحاسم في سياستنا. وقد قدم لنا الصلحاء في الجانب الإداري الصرف خدمات

وذلك في تنظيم تصرفات أتباعهم والدعاء لرؤساء الجماعات المختلطة وتهدئة الأوضاع[14]، ولكن هل نستطيع أن نتخذ من الصلاح والطرق والدين الإسلامي وسيلة للحكم كما كان مقترحا؟[15]. لا نعتقد ذلك فما هو صالح وجيد للمغاربة والأتراك ليس يكفينا، فسن سياسة غير مرنة للسياسة الدينية سيف ذو حدين، ومن الخطير توظيفه. وكذلك اختلاف الأجناس الذين يتحركون باسم الإسلام في إفريقيا الشمالية من أجل أن نستطيع إغلاق – وفي دفعة واحدة -طرق التعامل معهم لاختلاف أنواعهم، وإذا كنا مجبرين على سن بعض القواعد السياسية، فإننا سنلجأ مؤقتا إلى تلك التي سنناها قديما وأن نزيح عنها بعضا من صرامتها والتوقف قدر الإمكان عن كل تدخل ديني محض وخلق وسائل أخرى ممكنة من أجل مصالح جديدة[16].

---

13 - Trumelet, op laud, p.369

14 - أنظر اتفاقية هامة في: Depont et Coppolani confréries musulmanes .p.207

15 - Depont et coppolani, op laud, p 262.

16 - Hugonet, Souvenirs d'un chef de Bureau. p. 68.

فهرس المحتويات

تقديم 5

الفصل الأولا

كلمة الصلاح في الإسلام 13

1 - كلمة الصلحاء في الإسلام المغاربي 15
2 - مكانتها في الدين الإسلامي بالمغرب العربي 17
3 - توزيع الصلحاء 21
4 - أصول زيارة الصلحاء 25

الفصل الثاني

الصالح ووضعه الاعتباري في المجتمع 29

1 - تقديس الإنسان 31
2 - الخصائص المجالية للصلحاء 32
3 - التأثير المحلي الكبير للصلحاء 32
4 - أكثر احتراما من السلطان، أكثر احتراما من الرسول 35
5 - المقدمون ورثة امتيازات الصلحاء 41
6 - قبائل لا تحترم الصلحاء 43

الفصل الثالث.

مدلولات كلمة : صالح 47

1 - تاريخ كلمة الصالح 49

2- رباط المرابطين 49
3 - حركة صلاح منذ القرن السادس عشر 52
4 - مدلول كلمة مرابط 53
5 - مدلول كلمة ولي 55
6 - مدلول كلمة مجذوب 56
7 - مدلول كلمة بهلول 56
8 - مدلول كلمة مولاي 57
9 - مدلول كلمة سيدنا 58
10 - مدلول كلمة سيدي 59
11 - مدلول كلمة سي 59
12 - مدلول كلمة عمي 60
13 - مدلول كلمة لالة 61
14 - مدلول كلمة دادة 62
15 - علامات الصلاح 63
16 - مدلول لقب الشريف 64

الفصل الرابع
مدلول كلمة شريف 67

1 - شرفاء القرن السادس عشر 69
2 - قبائل الصلحاء وساداتها 69
3 - انتقادات الأنساب الشريفة 72
4 - سيدي عبد السلام بن مشيش 73
5 - صلحاء مجهولو الاسم 75
6 - صلحاء مدعو النسب العربي 78
7 - صلحاء أتراك ورومان 78
8 - صلحاء تنبأوا بالاحتلال الفرنسي 80
9- صلحاء للمدن الكبري والقرى 82

10 - أساطير إنجيلية مطبقة بالمغرب 88
11 - صلحاء مسلمون يقدسهم اليهود........................ 88
12 - صلحاء يهود ومسيحيون يقدسهم المسلمون 90
13 - كيف تصبح صالحا؟ 92

الفصل الخامس

معنى كلمة صالح

93

1 - الصالح بالولادة........................ 95
2 - الصالح بالأعمال الصالحة........................ 96
3 - الصالح بالحمق........................ 97
4 - الصالح بالتقشف........................ 97
5 - أجسام الصلحاء........................ 98
6 - سلوكات الصلحاء........................ 99
7 - الصلحاء والإدمان على الخمر........................ 104
8 - الصلحاء والإدمان على الفسق........................ 105
19 - صلحاء تزوجوا مسيحيات........................ 107
10 - دور المرأة في الصلاح المغاربي........................ 108
11 - عتاقة نبوءة نساء صالحات بالمغرب الكبير........................ 108
12 - أسطورة صالحة........................ 109
13 - خصائص هذه الأساطير........................ 112
14 - صالحات تتعاطىين الدعارة........................ 116
15 - حريات النساء الصالحات........................ 118
16 - صالحات بلباس الرجال........................ 119

الفصل السادس

طائفة الصلحاء

121

1 - الاحترام الذي يخص به الصلحاء........................ 124
2 - الدور الاجتماعي للصلحاء........................ 125
3 - صلحاء يعرضون على العدالة........................ 125

4 - صلحاء بشار، متسترون عن المسروقات 127
5 - صلحاء لصوص مطاردون 128
6 - صلحاء حماة المسافرين 130
7 - الصلحاء والتجارة 130
8 - الصلحاء والفلاحة والسقي الزراعي 132
9 - دور الصلحاء في الصلح زمن الحروب 133

خلاصات 137

1 - الصلاح كوسيلة للحكم 137
2 - سياسة الاحتياط أو التحفظ 138
فهرس 141

تم الطبع بمطابع أفريقيا الشرق 2014
159 مكرر، شارع يعقوب المنصور، الدار البيضاء
الهاتف: 04 95 25 0522 / 13 98 25 0522
الفاكس: 20 29 25 0522 / 80 00 44 0522
مكتب التصفيف الفني:39. زنقة علي بن أبي طالب - الدار البيضاء.
الهاتف: 54 / 53 67 29 0522 :الفاكس : 72 38 48 0522
البريد الإلكتروني : E-Mail : africorient@yahoo.fr
www.afrique-orient.com

الصلحاء

نبذة عن حياة المؤلف

يعد إدموند دوتي(1867 - 1926) أحد أهم مؤسسي أنتربولوجيا الدين بالمغرب الكبير.

ولد شمال شرق فرنسا، والتحق سنة 1892 بالأوراس الجزائرية ليشتغل مساعدا إداريا،ثم التحق بوهران محررا سنة 1894 حيث تابع دراسته على يد موليراس، وأصبح أستاذا للآداب بمدرسة تلمسان سنة 1898 بعد أن أبان عن مستوى جيد أثناء مرحلة التحصيل العلمي. وكلف بعد مرضه سنة 1899-1900 بمهمة إنجاز قائمة المخطوطات العربية للمساجد الجزائرية. ثم أرسل بعد ذلك إلى المغرب سنتي 1901 - 1902 للإعداد لإدماج المغرب في دائرة الاستغلال الفرنسي. وأسفرت الرحلة عن تأليف كتابه «مراكش أو قبائل الشاوية و دكالة والرحامنة سنتي 1901-1902» الذي ترجمناه في مناسبة سابقة. وتقلد عدة مناصب تراوحت بين الإداري والتعليمي، وكان دوتي يتردد على المغرب كل فصل خريف ما بين سنتي : 1906 - 1907 حيث أسفرت رحلاته المتكررة هذه عن كتب هامة جدا في مجالها، منها هذا الكتاب الذي نحن بصدد تقديمه إلى القراء اليوم، وهو عبارة عن مقال هام نشره سنة 1901 تحت عنوان «الصلحاء : مدونات عن الإسلام المغاربي» بمجلة تاريخ الأديان في عددين متتاليين. والكتاب استمرار لجهود أساتذة كبار في المجال مثل موليراس ولامارتينيير ولاكروا وشارل دوفوكو وهنري باسي وكولد زيهر.

نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة

ISBN 9981-25-984-3
9 789981 259843

الثمن : 60 درهما

Paul Anderbouhr,
Marabout à Safi.

http://albordj.blogspot.com